

ليس الطوبى

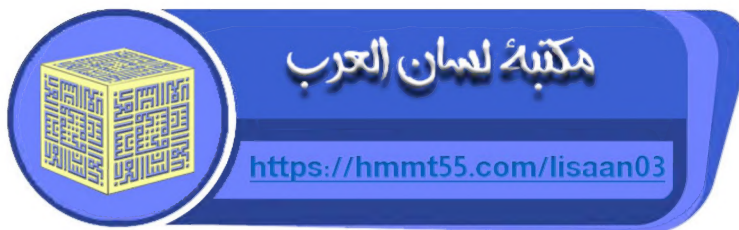
رسالة في لوى العملاء

« الرجل الذى »
« وجد نفسه ! »



جماعة الكتاب

أخرجت هذا الكتاب بمناسبة العيد الألفي لميلاد أبي العلاء
المعري « ١٣٦٣ هـ »





الأمينة

مدرسة الفن والحياة

شعارهم: كريم على نفسي

- أهلهم ١ ألا يكون الفن رزاقاً رضيعاً ١ وأن يكون الفن نشاطاً هدياً سامياً
ولا نكباً متجراً ينجس الشهوات بعد الفرد ولا نكراً يبعث حجةً وديعة
والأهلواء ومحجاً لأضواء ولا وهام في حياة التمتع غابة كساها الزواجر
٢ ألا يكون الفن نيباً للذاتية ٢ وأن يكون الفن رصداً في رصدهم واهلهم
وهذا راسخ في الأرضاء فهو في كل فنهم طابع شخصي وسورة فنية
يرجم بالظن ويحمدس بالوهم وهو في الأقاليم المتوتجة ذو طابع عام له
٣ ألا يكون الرأي الفني العام توجيه ٣ وأن يكون الرأي الفني العام قيعاناً
مسيطر ولا اعتكاف متجرد ولا تهوؤ مفضل ولا وضع يد ولا مضي زمن
سجدة راسخة على الاستواء ويحكم التقدم فيذهب الزبد جفاد ويحلب الحبيبة على الزبد
٤ ألا يكون ريس الأدب نايحة تناوذاً ٤ وأن يكون ريس الأدب نايحة على مزمار
لحسناً وتردياً تقليدياً بلا لا يابر نصحه الخبرة الإنسانية بالحياة والنفس
تقدم الإنسانية ورفق الحياة العقلية والجماعة ومثل التقدم الإنساني والرفق العقلي

شيخ المدرسة { أستاذ الأدب بجامعة فؤاد الاول
«الأمين الاول»

الى

الذين يرفعون القواعد من المدرسة

النفسية في دراسة الأدب وتاريخه

من أجل المنهج

تفهمت أبا العلاء سنين ، حتى انتهيت إلى هذا الرأي ، الذى أعلنته منذ سنين - ١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠ م :- ثم تركته بعدها للمدارسة والترديد ، حتى نشر اليوم . فلعلة بذلك ، يكون قد جاء الحياة سنوياً قوياً .

قرأت كل ما أحسب ، أن قد رأى الشمس ، من آثار أبي العلاء ، شيراً أو نظيماً ، كاملاً أو منقوصاً ... وليس كل الذى خلف أبو العلاء ، قد جاءنا ... ولا كل الذى سمي من آثاره ، قد أبرأنا الذمة ، من الجد فى طلابه ... وبذلك كان اكتفائى بما وجد - كاكْتفاء قومي حولى - غير وفاء بالمنهج الأدبى ، كما أفهمه وأدعو إليه ... (١)

واعتمدت فى قراءتى ، على النسخ المعروفة ، فى خير صور نشرها ، وليس كل الذى نشر منها ، قد أثبت نسبه ، وحقق نصه ... وبذلك كان اكتفائى بما نشر - كاكْتفاء قومي حولى - غير وفاء بالمنهج الأدبى ، كما أفهمه وأدعو إليه ...

على أنه ، إن يكن قومي - أفراداً وجماعات - قد آثروا عدم الوفاء بالمنهج إشاراً ، بعد ما دُعوا إليه جهاراً ، وبعد ما عفى به آباؤهم قبلهم ، ثم عفى به المحدثون

(١) أ . الحولى فى كتاب «الى الادب المصرى» ص ٨٤ وما بعدها

في الغرب حولهم ، فإني أنا ، إنما اضطررت إلى هذا القدر ، من غير الوفاء اضطرارا . . . ثم ها أنذا أقدم به قولي ، صدر الحديث معك ، حيث يلتبس رضاك بالتقديم أو التقريض . فهل تدري لم كان هذا ؟ . . لا تعجب إذا ما قلت لك : إن ما كان من غير الوفاء بالمنهج ، إنما كان من أجل المنهج نفسه ،

المنهج الأدبي خارجي ودخلي

وجلية الأمر ، أن هذا الذي ذكرنا أمس ، ونذكر اليوم ، من خطي الدرس الأدبي ، كالجمع المستقصى للنصوص ، ثم التحقيق المثبت لها . . إنما هي من المنهج ، جنباته ودعاماته المادية ، أو إن شئت فسمها : المنهج الخارجي . . ثم ما بعد ذلك من الفهم الدقيق المستشف ، هو من المنهج لبابه وروحه ، أو إن شئت فسمه : المنهج الداخلي . . ولا تجدى علينا العناية بهذا المادى الخارجى ، إلا طلبا للبعوى الداخلي . . فلما قلت في المنهج الخارجى ، ما قلت ، وعلمت ما علمت ، ثم كانت المناسبات المتكررة (١) في إحياء أبى العلاء ، سنحت - في تقديري - فرصة للتحديث في المنهج الداخلى ، وتقديم المثل المرجو فيه ، من دراسة أبى العلاء ، وفننه ، لأنه - فيما أنست منذ بعيد - رجل قد صدق

(١) كانت أولى هذه المناسبات اعتزام كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول سنة ١٣٥٦ هـ إقامة أسبوع للمعري ، وإن لم يقم . . ثم كانت ثانيها إذاعة الاخبار عن تعاون الشرق والغرب على إحياء ذكرى الرجل بتشيد مقبرة له ، والى جانبها مكتبة تضم جميع ما كتب عنه . ولهذه المناسبة الثانية ، رأيت أن أذيع نتيجة درسى له في المحاضرات العامة ، التى تنظم الكلية موسما السنوى ، في الجمعية الجغرافية الملكية ، فألقيت خلاصة هذا الرأى بمحاضرتين في شهر إبريل سنة ١٩٤٠ م

الناس الحديث عن نفسه . وفي حياته وظروفها وأزماتها ، ثم في نفسه وسعته
وتساميه . . . في كل أولئك ، مجال رحب لتفهم النفس ، والتحليل الشخصي ،
والانتفاع بما عرفت الدنيا الحديثة ، عن النفس البشرية وعقدها ، وبذلك يكون
أبو العلاء خير مثال للعناية بالمنهج الأدبي الداخلي . . وهو ما يهدف إليه هذا
البحث ، ويقوم عليه ذلك الرأي في فهم أديبنا وأدبه ، فهما صحيحا ، ذا أساس
نفسى ، تتصل فيه شخصية الأديب بأدبه ، ولا يكتفى فيه بنظرات ادعائية ،
أو مقررات تقليدية .

إكمال المنهج الداخلي

نحاول من هذا الدرس ، وذلك المثال ، المشاركة على تحقيق الغاية المرجوة ،
التي تؤمن أنها أجل وأكبر ما ينقص حياتنا الأدبية ، تلك هي :
تحرير المنهج وتكميله . . والمنهج هو الدستور ، الذي يقرر أصول التفكير على
اختلاف ألوانه ، ويضبط قواعد الإدراك على تنوع قواه في الإنسان . . وعند
الجامعة والجامعيين ياتممس الناس هذا التحرير والاكمال ؛ وعندهم يؤخذ ؛ ولا
خير في عمل من أعمالهم ، ما لم يرق على المنهج المصحح الكامل . . وإلا فما حال ذلك ؟
الذي يعاني درس الأدب وتاريخه : فيصف العصور ، ويحلل الشخصيات ،
ويتذوق الفن ، ويتحدث عن مزاج الأمم والأفراد ، ويحكم تلك الأحكام
البعيدة المدى ، الجرئية التناول ، في كل ذلك جميعا . . وهو لا يدري كيف
يثبت نصا . . . ولا كيف يحقق نصا . . وأما كيف يقرأ نصا ، قراءة دارس

متفهم، فهو عليه أبعد وأشق !! من أجل ذلك : كانت العناية بالمسألة المنهجية، أكد وأعظم ما تخدم به النهضة الأدبية .

ولئن قلت - قريبا - إن القدماء قد أصلوا المنهج الأدبي، فإن من الحق أن أقيد ذلك بأنه تأصيل للجانب الخارجى، الذى أشرنا إليه لاغير.

فقد قرروا من القواعد فى جمع النصوص ونقلها وإثباتها وتحريرها، ما لا يزال حتى اليوم، كافيا صالحا للبقاء ...

أما المنهج الداخلى، المتناول لفهم النص الأدبي، فلا مفر لنا من تقرير أنهم فيه لم يوفوا على الواجب، وأن فرق ما بين عملهم فيه، وبين ما ينبغى اليوم منه، ليقاس بفرق ما بين التقدم العقلى، بين أمسهم الغابر ويومنا الشاهد، وما بين معرفة الانسان بالكون وظواهره، والنفس وقواها، فى عهدهم البعيد، وعهدنا الحاضر .. فإذا ما دعونا الى تحرير المنهج الخارجى وتصحيحه، فذكرنا من عملهم فيه، وعمل غيرهم (١) ما يتكامل ويفيد، فإننا فى المنهج الداخلى وفهم النص الأدبي، إنما نطالب التكميل والإضافة، وزيادة ما لم ينالوه فى هذا السبيل، أو شعروا به شعورا مبهما ضعيفا، وكذلك يجب أن نقوم بعملين اثنين : تحرير المنهج الخارجى، وتكميل المنهج الداخلى.

وبين لك هذا التكميل، أن تقدر ما ورثناه عنهم، ومصنينا نتابعهم عليه فى فهم النص الأدبي وتذوقه، إذ تراهم وترانا، إنما نفهم النص من مادته ولفظه بحسب : نفسه تفسير لغويا، سطوحيا، أو بعيدا عن السطح قليلا (٢) ونوجهه توجيها نحويا، بقدر ما بين الاعراب والمعنى من صلة، إن لم نجاوز ذلك إلى

(١) أ. الحولى ومحاضرات لطلبة الماجستير بكلية الآداب، عن المنهج النقلى قديما وحديثا (مخطوطة)

(٢) راجع وصف التفسير اللغوى العميق فى كيفية دراسة مفردات القرآن من رسالة

التفسير لسكاتب هذا، ص ٤١-٤٤، الطبعة الثانية لجامعة الكتاب

عناية خاطئة بالصناعة النحوية ، ليست من العمل الأدبي في شيء ما .. ثم نبين ما فيه من تفنن أدبي ، بيانا تشير إليه إيماء - بل قد تسمى إليه أحيانا - مقررات البلاغة الفلسفية التي ورثناها وتدارسناها .. وفي حدود هذه الخطة اللغوية النحوية البلاغية ، على ضيقها وجودها ، نفهم الأدب وتتذوقه وننقده ونقدره ، ونؤرخه ونحكم عليه .. وكأئنا كل ما بين المتفنن والناس ؛ قد تجمع في ذلك السكبان المادى اللفظي ، الذي تحده المعاجم ببيان المفردات ، بيانا أثريا جامدا ... والقواعد النحوية لتأليف الجمل في سطحياتها وتصنعها ... والضوابط البلاغية لجمال الفن القولى ، في جفافها وقصورها . !! لا والجمال ما كان الفن هذا الحطام أبدا .. وإن الفن حينما يعبر عن الاحساس بالجمال ، ذلك التعبير الكلامي ، الذي هو الأدب ، إنما يسجل خلجات وخطرات وجولات ؛ بل تيارات نفسية لصاحب التعبير ، هي التي دبرت ذوقه ، ووجهت حسه ، وألقت نصه ؛ وإنها لتدفعه أحيانا دفعا قويا ، يكون معه مستهوى مسحرا ، يقول ما يجد ، وقد ملك عليه نفسه ، فجرى به لسانه ، قبل أن تقدر قواه الواعية ، كيف نظم لفظه ، أو أقام إعرابه وأجرى استعارته ، أو نسق عبارته ، تعريفيا وتكثيرا ، أو تقديما وتأخيرا . الخ ... بل لعل الأديب صاحب الأثر نفسه ، قد يحتاج - فيمن يحتاجون - إلى تدبر قوله ، وتبين تأليفه ، فلا يكون أقل حاجة في ذلك من سامع يتفهم ، وقارئ يتأمل .. والذين عانوا الفن القولى ، في صورة من صورته ، يدركون هذا الذى أحصفه جليا ، ويفهمونه بديها .. والنقاد الأدباء يعرفون ذلك جيدا ..

نعم .. إن وراء هذا الظاهر الخارجى ، لقوى نفسية تصنع الفن ، وتؤلف القول ، وتصور المعنى ، وتجرى ذلك كله ، على يد المتفنن ، بعمل لو زعمت

أن منه ما ليس إراديا ، لم تخطيء ولم تبعد... وإن عبارات صاحب الأدب
اتظل تحمل لذلك كله آثارا قوية - وإن لم يشعر بها أصحاب الخطأ اللفظية ،
جلية ، وإن لم يستنبها أصحاب الطريقة المادية ؛ وعلى متفهم الفن أن يلتبس
ذلك ، بخبرته النفسية ، ولحجته الوجدانية ، ويتبينها بأضواء المعرفة الانسانية ،
لحركات النفس وحياتها ، وتأثيرها وتأثيرها ...

وكذلك ينبغي أن نكمل المنهج الداخلى للأدب ، فنفهم الأدب والأديب
فهما نفسيا . . ومن ذلك الفهم النفسى ، سقت هذا المثال من فهم أبى العلاء ،
إذا انتهيت فيه إلى هذا رأى ...

ولو شئت أن أجمل لك هنا خطى الفهم النفسى للأدب والأديب ،
وأبين أركان هذا التكميل المنشود للمنهج لقات إنها :

١ - النظر فى أدب الأديب جملة ، وعلى أن له وحدة متماسكة ، بحيث يتصل فى
فهمك وتذوقك ، قريبه ببعيده ، وأوله بآخره ... ثم أنت منسقة على فنونه ،
وناظر إليه فنا فنا ، على النحو الذى أصفه بعد ، بأوسع من هذا الاجمال هنا

٢ - وصل الأديب بأدبه ، وفهم الادب بشخصية صاحبه ؛ كما تفهم الشخصية
الأدبية نفسها بآثار صاحبها ، فى غير دور ولا تداخل ؛ إذ يتقدم من فهم
الشخصية فى ظروفها الجسمية والحيوية وما إليها ، ما يعين على فهم خفايا الادب ،
ثم يتأخر من فهم هذه الخفايا الأدبية ، ما يكمل فهم الشخصية النفسية لصاحبها ؛
فتم الوصل بين الادب والأديب فى هذا الفهم النفسى ؛ وصلا مجديا
غير مضطرب .

٣ - الانتفاع الدائم المتجدد ، بما عرف ويعرف ، في دوائر الدرس النفسى المجرب الدقيق ، لقوى الانسان وملكاته ، ومشاعره ، وغرائزه ، ويتم هذا الانتفاع بتعاون المدرسين : النفسى والادبى ، تعاوننا يخص علم النفس الادبى بالعناية المثمرة ، التى تمد الأدباء ، بالأضواء الكافية لفهم الأنفس ، وتكشف لهم عن آثار ذلك فى الفنون .

ولا أزيد الآن على هذا الاجمال ، لآركان الفهم النفسى للأديب والأدب ، مكتفيا هنا بالمثال العمل الذى يقدمه « رأى فى أبى العلاء ، تاركا تفصيل هذه الخطوات لفرصة أخرى ، لعلها - إذا أعان الله - تكون تكميلا لدرس أبى العلاء نفسه .

حَلَقَاتٌ مُتَّصِلَةٌ

وليس هذا الذى أحدثك به عن الفهم النفسى للأدب بدعا من القول ، لم أحاوله قبل الآن ، فى تحرير مناهجنا الأدبية : كلا . . بل إنك حين تقدر اتصال الدراسة الأدبية فى صورها المختلفة ، تستبين هذا القول ، مسبوقا منى بمحاولات بعيدة العهد ، غير ضيقة المدى ، فى سبيل تأصيل الدراسة النفسية الأدبية ... ومن هذه المحاولات ما كان قبل الآن ، فى تكميل منهج البلاغة بحيث تصير « فن قول » يقدم له بمقدمة نفسية ، تدعم صلة فن القول بعلم النفس الادبى ... كما أن منها القول « بالتفسير النفسى للقرآن » وهو كتاب العربية الأكبر ، وتاج أدبها ... وماتم من ذلك ، فى تطبيق غير قليل لهذا الاصل النفسى فى التفسير ... ثم حديثى عن هذا الرأى فى « الاعجاز النفسى للقرآن » وتعليله تعليلا يقوم على تقدير أن العنصر النفسى

في الأدب، هو لبابه وروحه (١). فإذا ما دعوت اليوم إلى الفهم النفسي للأدب والاديب، بل إلى رفع قواعد «المدرسة النفسية للأدب» فليس ذلك عمل اليوم، ولا بادي الرأي، بل هي حلقات متصلة، يشد أولها آخرها، وترى الاتصال بينها قويًا متسقًا، ومن هنا أهديت هذا الرأي... «إلى الذين يرفعون القواعد من المدرسة النفسية في دراسة الأدب».

نم البيئة.. أيضًا

وإذ تردد الحديث عن المنهج الأدبي، وتحريره وتكميله، وقد سبقت قبل الآن كلمتي عن «إقليمية الأدب» وشدة تأثير الفن ببيئته، وضرورة مراعاة ذلك في درس الأدب وتاريخه؛ فلعلك سائلي: أفلا يكون إذن أهدى لدرس «أبي العلاء» أن يقوم به أحد أبناء بيئته؟ فأجيبك أن نعم.. لكن هناك أشياء في هذا الدرس، وفي الأدب المدروس؛ ينبغي أن تقدرها.

فأما في الدرس فإنني إنما حاولت فهم الكيان النفسي لأبي العلاء؛ وتبين سمات شخصيته الفنية، قبل كل شيء. وتركت ما وراء ذلك من بقية الدرس لأدبه: لفظًا ومعنى وموضوعًا؛ وفي ذلك يكون ابن بيئته أهدى مني، وهو باق له.

وأما في المدروس، فهناك معنيان كبيران، يحلان لي درس صاحبنا: أولهما: أنه حين أغمض عينيه مبكرًا، عما حوله من ظواهر الوجود، قد عكف على باطنه، يستلهم مذخوره ومحفوظه، تخف نوعًا ما، أثر البيئة المادية عليه، واعتمد على أقدار مشتركة من الميراث الأدبي للعربية، جعلت الصلة بينه وبين

(١) اقرأ الاجمال عن ذلك كله، في رسالته «البلاغة وعلم النفس» لكاتب هذا.

أبناء البيئات الأخرى قريبة قوية .
وثانيهما : وهو الأجل الأخطر ، أن أبا العلاء في أدب العربية ، قد تفرد
- أو كاد - بجعل الفن القولي - كما ينبغي أن يكون الفن - أداة لفهم الكون
والإنسان . كما كان الدين ، وكانت الفلسفة ، وكان العلم ، وكان غير
ذلك ، من محاولات إنسانية خالدة . وبذلك أخضع مشكلات الحياة
والكون الكبرى ، لتأمل المتفكرين ووجدانه ، وأشرف من ذلك على آفاق
بعيدة ، تلاقي آفاق التفلسف والتدين والتصوف في سمعتها ، فدنا
- بذلك كله - من نفوس متفهمي الانسانية جميعا ؛ بله ؛ متذوقي أدب العربية .
وساغ لكل مستمتع بالفن ، متأمل في الوجود ، أن يحول في آثار أبي العلاء ؛
فيجد الخفقات الكبرى ، للروح الانسانية ، ويصير من أسرار هذا الهيكل
البشري ، ما تكشفه له أضواء الخبرة النفسية .
وبهذا القدر كان أبو العلاء قريبا من البيئات العربية - بل الشرقية ؛ أو
غير الشرقية أيضا - قريبا لا يقصر درسه على أبناء بيئته .

وبعد ..

فمن أهل المنهج الأدبي الراجح والاستكمال ، ما واث درس أبي
العلاء وفنه ، على أساس نفسي .. وأدعو الى درس أدبائنا جميعاً
على مثل هذا الأساس لتفهم فنهم من أرواحهم ، لا من أنفاسهم فحسب .
أمين الحقولي

على الدهر

«وخامل ما نأت عنه نباهته كأنه الجمر غطى ضوءه اليبس ،
هكذا قال المتوحد الحبيس ، أبو العلاء ، مولعه عن نفسه ، فما نأت عنه
قط نباهته ، رغم انكماشه واستتاره ... وفي هذا العصر الحديث ، كان أبو العلاء
موضع العناية الدائمة ، فنذ بضعة وخمسين سنة كان يقارن بينه ، وبين ملتن
الشاعر الانجليزي . . . (١) ومنذ قرابة ثلاثين عاما ، كان يقابل بشوينهاور
الفيلسوف الألماني . (٢) ومن ربيع قرن مضى ، كان يدرس في الجامعة المصرية
الأولى (٣) حينما كان أحد أبناء الشام (٤) يبعثه من مرقده ، ليطوف به في
بلاد اليونان ، وإيطاليا وفرنسا ، يلقي معه آلهة الحكمة والفنون
ورموس الفلاسفة ، وعظماء الرجال ، ثم ما زال هذا الحديث حتى اليوم متصلا .

انتهى المحدثون الى أن أبا العلاء كان فيلسوفا حقا (٥) ، وأن المسلمين لم يعهدوا
بينهم في قديمهم وحديثهم فيلسوفا مثله ، قد جمع بين الفلسفة العلمية والعملية (٦) .
إلى أقوال تشبه ذلك

ولكن هذه الشخصية القوية العنيفة ، التي صدر عنها ذلك الأدب الغزير

(١) انتتطف م — ١٠ ص ٤٩ وما بعدها .

(٢) مقدمة رسالته « ملقى السبيل » بقلم ح . ح عبد الوهاب باشا

(٣) « ذكرى أبي العلاء » للدكتور طه حسين بك

(٤) الاستاذ معروف الارناؤوط ، في رسالته « فردوس المعري » التي طبعت ببيروت

سنة ١٩١٥ . ثم قلده في ذلك من قلده .

(٥) ذكرى أبي العلاء ، طبعة أولى ص ٣٣٠

(٦) المصدر السابق ص ٤٠٨

واختلفت جوائح صاحبها، بأشتات الخواطر والمعاني ، في جميع فروع المعرفة ؛ وأقسام الفلسفة ، لا تزال موضعاً للدرس ، وبمجالاً للبحث .. وهذه محاولة جديدة لفهم الكيان النفسى لأبى العلاء ، وإدراك التوابع المؤثرة في حياته وتوجيهها ، وتقدير شخصيته العامة ، على أساس من الواقع الجسمى والنفسى للرجل ، دون إسراف في الفروض ، ولا ذهاب في الاعتبارات الادعائية إلى حد بعيد .. وكأنما اطلع أبو العلاء بظهر الغيب، إلى هذه المحاولة الجديدة في فهمه يوم قال :

يكررنى ليفهمنى رجال كما كررت معنى مستعادا

سقط الزند ١: ٨٠

وإذ قد ولع المحدثون بوصف الرجل بالفلسفة ، ودعوه الشاعر الفيلسوف ، وحكيم الشعراء ، وشاعر الحكماء ، وإمام الحكماء ، وأشبه ذلك ، فانا ندير القول على أساس من التقسيم الفلسفى ، فتحدث عن :

سَأَلُ الْمَعْرِفَةِ عِنْدَ أَبِي الْعَلَاءِ

وهو فى سعة من القول ، وفكاك من قيود النظم ، يقول فى الفصول والغايات (١) :
« يدرك العلم بثلاثة أشياء : بالقياس الثابت ، والعيان المدرك ، والخبر المتواتر » كما يقول : « العقل نبي ، والخاطر خبي » والنظر ربي ، ونور الله لهذه الثلاثة معين (٢) .. فالمعرفة عنده ممكنة ، وسبيلها العقل ، والمشاهدة ، والخبر .. وهو يؤيد ذلك فى شعره ويكرره ، إذ يقول :

خذوا فى سبيل العقل تهتدوا بهديه ولا يرجون غير المهيمن راج

ولا تطفئوا نور المليك . فانه يمتنع كل من حجبى بسراج

(١) ١٦٩:١

فاسأل حباك ، اذا أردت هداية واحبس لسانك أن يقول مجازا

٦:٢

تفكر فقد حار هذا الدليل وما يكشف النهج غير الفكر

٣٥٧:١

فيطمئن الى هدى العقل ، ويرى التفكير الصحيح سبيل الوصول ، ويقول :

إذا تفكرت فكرا لا يمازجه فساد عقل صحيح . هان ما صعبا

٨٣:١

ولم يتناول درة الحق غائص من الناس ، إلا بالروية والفكر

٣٠٥:١

ولو صفا العقل ألقى الثقل حامله عنه ، ولم تر فى الهيجاء معتركا

١٣٣:٢

وحسن ظنه فى ذلك فقال :

/ اذا قرن الظن المصيب من الفقى بتجربة ، جاء ، بعلم غيوب

١٠٢:١

ورأى فى الاستدلال مخلصا من الحيرة :

تخير مسترشدا فوق لما استدل ٢١٧:٢

وتحدث عن القياس ، حديث الواثق المطمئن ، فكان من قوله فى ذلك :

وقس بما كان ، أمرا لم تكن تراه فالرجل تعرف بعض الموت بالحد

٣١١:١

أيها الملحد ، لا تعص النهى فلقد صح قياس واستمر

٣٥٣:١

وفي تصديق الخبر يقول :

فاعرف لصادقك الانباء موضعه واجزالكذوب على ما قال تكذيبا
٨٨:١

ويرى تكذيب الصادق رزاً

وبما أدام الرزم تكذيب صادق على خبرة منا وتصديق كاذب
٩٧: ١

وهو يمضى قدما فيحذر بما يفسد هذه المدارك للمعرفة ، ويدخل الخطأ عليها
فيصبح بأن يتقى الحسا كم بالعقل هو اه وعاطفته ، ولا يدع لهما سبيلا على
حكمة ونظره :

ومن كان في الاشياء يحكم بالحجى تساوى لديه من يحب ومن يقبل
١٨٤:٢

وأن يرجع مستمع الاخبار الى عقله :

وخبره صادق بالحديث فان شك في ذاك فليختبر

٣٥٩: ١

والحديث المسموع يوزن بال عقل فيضوى اليه عرف ونكر

٢٨١: ١

وأما تمحيده للعقل ومقدرته ، فشئ يوفر الثقة التامة به ، فمن قوله في ذلك

يخاطب الروح :

تركت مصباح عقل ما اعتديت به والله أعطاك من نور الحجا قيسا

٢٧: ٢

والعقل أولى بالاكرام والتصديق :

تكذب العقل في تصديق كاذبهم والعقل أولى باكرام وتصديق

١٣٦: ٢

وعليك العقل فافعل ما رآه جميلا :

عليك العقل ؛ وافعل ما رآه جميلا فهو مشتار الشوار

٣٣٦: ١

والعقل خير مشير ضمه النادى :

فشاو العقل ، واترك غيره هدرًا

٢٢٩:١

والعقل قطب المدار :

اللب قطب ، والامور له رضى

فيه تدبر كلها وتدار

٢٦٧:١

ومن اهتدى بسوى العقل هلك :

من اهتدى بسوى المعقول أورده

من بات يهديه ماء طالمًا تبلا

١٦٩:٢

والعقل أفضل أنصاره وأعوانه :

لا أشرب الراح أشرى طيب نشوتها

بالعقل أفضل أنصارى وأعوانى

٣١٥:٢

والفكر جبل يناط بالثرى :

الفكر جبل متى تمسك على طرف

منه ينط بالثرى ذلك الطرف

٨٩:٢

والعقل بحر لا يغض :

والعقل كالبحر ما غيضت غواربه

شيئا ، ومنه بنو الايام تغترف

٥٩:٢

والعقل يحيل ليلك نهارا مشمسا :

وإنك إن تستعمل العقل لا يزل

مبيتك فى ليل ، بعقلك مشمس

٣٢:٢

ولا إمام لأبى العلاء سوى العقل :

كذب الظن لا أمام سوى العق

ل مشيرافى صبحه والمساء

مة عند المسير والارساء

١٩:١

فاذا ما أطعته جلب الرح

وسيرحل عن الدنيا ولا إمام له سوى العقل
سأتبع من يدعو إلى الخير جاهدا وأرحل عنها ما إمامي سوى عقلي

١٨٣:٢

وهذا العقل الامام المتبوع ، نبى عنده :
أيها المر ، أن خصصت بعقل فاسألنه ، فكل عقل نبى

٣١١:٢

وقد سمعناه ناثر يقول : العقل نبى . . . وهو حين يطمئن الى المعرفة هذا
الاطمئنان ، ويمجد العقل هذا التمجيد ، يشاجر السفسطة ويخالفها ، ويقول :
وقال اناس ، ما لأمر حقيقة فهل أثبتوا أن لا شقاء ولا نعيم
وشكك في الايجاب والنفى معشر حيارى جرت خيل الضلال بهم سعا (١)
فنحن وهم ، في مزعم وتشاجر ويعلم رب الناس ، أكذبنا زعما

٢٤٢:٢

هذا الفتى أوقح من صخرة يبهت من ناظره حيث كان
ويدعى الاخلاص في دينه وهو عن الالحاد في القول كان
يزعم أن العشر ما نصفها خمس ، وأن الجسم لا في مكان

٣٣٣:٢

تسمع ذلك كله ومثله معه فتقول إن المعرى رجل عقلي لا يؤمن الا للعقل
وحده ، وهو يرى رأى الفلاسفة النظريين من اليونان والمسلمين في الاهتمام
على العقل خاصة (٢)

لكن رويدك واستمع اليه . . فانه بعد ما أدرك العلم بالخبر المتواتر شعر
بخطر النقل على الاخبار وإفساده إياها

(١) السمم ضرب من السمير لكن للابل كما في القاموس (لا للخيول)

(٢) ذكرى أبي العلاء ط اولي ص ٣٣٩ ، ٣٤٠

والنقل غير أنباء سمعت بها وآفة القول تقليل وتكثير

٢٥٩:١

أتاني باسناده مخبر وقد بان لي كذب الناقل

٢١١:٢

فاتهم الأخبار لهذا، وتساءل:

هل صح قول من الحماكي فنقله أم كل ذاك أباطيل وأسما

٢٥٧:١

خبرتني أمرا، فقل راشدا من أين هذا الخبر الشار

٢١٢:١

والشهادة يؤديها العدول بين يدي القاضي متهمة عنده:

ورب شهادة، وردت بزور أقام لنصها القاضي عدوله

١٧٥:٢

وهاجم الخبر الديني:

أتني أنباء كثير شجونها لها طرق أعني على الناس خبرها

صفادونها قس النصارى وموبذ الـ مجوس وديان اليهود وحبرها

وخطوا أحاديثا لهم في صحائف لقد ضاعت الأوراق فيها وحبرها

٢٥١:١

وعاب اعتماد الأديان على الأخبار:

وإذا غلبت مناقضات دينه ألقى مقالده إلى الأخبار

أقسام لفظك ستة وجميعها لا مين يلحقه سوى الإخبار

٣٤٢:١

آليت ما الخبر المداد بكاذب بل تكذب العلماء والأخبار

ووجدت أصناف التكلم ستة بالمين منها أفرد الإخبار

٢٧٠:١

وتعقب ذلك بما يستوفى في الكلام عن رايه في الدين، وهو لا يقف عند مهاجمة الخبر الديني وحده بل يجاوز ذلك الى الخبر كله، ويرى الافتراء عملاً متوارثاً في الناس :

وجدت أباك مفترياً حديثاً فأنت على مقص الشيخ تفرى
٣٢٤:٣

وتنتهي به مجرته الى ألا يصدق خبراً :

لقد جربت حتى لم أصدق حديثاً عن قريب مدى ثقلاً
١٧٤:٢

فيخرج الخبر من أن يكون عنده سبيل معرفة، إذ يقول :
لم تعطنا العلم أخبار يحيى بها نقل ولا كوكب في الأرض مرصود
٢٠١:١

وتدع الخبر الى القياس الذي سمعت تقريره له، فإذا هو يبغيه فلا يستطيعه :

قد نفضت السهام أبغى المقاييد س، فلم يثبت الرميّة نفضي
٦٢:٢

وإذا المقاييس قد عيت بأمر الناس :

لعمري لقد أعيا المقاييس أمرنا فخذسنا عند الظهيرة مظلم
٢٢١:٢

وإذا هذا القياس لم يثبت للناس شيئاً :

رموا فأشروا، ولم يثبت قياسهم شيئاً سوى أن رمى الموت تسديد
٢٠٣:١

ومكفأ هو يتهم قياسهم :

وقد بالغوا في قياس بان زخرفه يؤهى العيون ولم تثبت له حمد
١٩٧:١

وهو لا ينكر قياس الناس لخطئهم فيه، بل لأن القياس نفسه عمل خاطئ،

إذ أن أحكام الحوادث لا تقاس :

غنى زيد ، يكون لفقر عمرو - وأحكام الحوادث لا يقسنه

٢٩٧:٢

وليست هناك نوااميس ثابتة ، ولا أصول لهذا النظام مضطردة ، فالقياس ضلال :

تروم قياساً للحوادث ؛ ضلة وتلك أصول ليس يجمعها حصر

٢٤٧:١

ولعمل هذا التفضيل للقياس ، لم يجر إلا متأخرا ، وقد سبقته مراحل أخرى ، نستخلصها في سهولة ، من شعره : فأبو العلاء يتشوق للمعرفة ، القى سمعنا إلحاحه في تقريرها ، فهو يقول متلهفا ، في وصف الانسان :

ويجهل حتى يسأل الفلك الذى يدور عليه ، كيف بدء مداره
يحاور نجم الليل جهلا ، كأنه على طول نأى : طامع فى انحداره

٣١٠:١

وهو يجد الحق فى دار حريضة ، يطوف بها متلصصا ، ولا يفيد التطواف فى سبيل الحق شيئا ، بل هو فى حندس مظلم ، لم يلف من يهديه إلى معلم :

طوفت فى الآفاق عصرا ، فما أسفرت من حندسك المظلم
سألت أقواما ، فلم تلف من يهديك من رشد إلى معلم

٢٧٠:٢

والجهل أغلب على الناس :

والجهل أغلب ، غير علم ، أنا نفنى ، ويبقى الواحد القهار

٢٧٤:١

فمويخرج من الحيرة ، فيقول ناثرًا : يا مقبس ، ويا مقبس ، إن
أمرنا الملبس (١) . . ويقول : وبعليه - أى الله - أرخيت السجوف ، دون
المنجوف - المستخرج - وثبت القتر ، فى الكتر (٢) - أى النصل فى السنام -
وهكذا فالعالم حائر :

عالم حائر كطير هواء وهواف تضمها الدأماء (٣)

٤٣:١

كأننا فى قفار ، ضل سالكها نهج الطريق ، وما فى القوم خريت

١٣٥:١

تحيّرت العقول وما أساءت دوائب فى التقى متبهجات

١٣٤:١

فالنفس قد شككت فى يقين الأمر

والنفس شككت فى يقين الأمر وال كفاف إن رمتا قنصا شككتا

١١٣:١

وكأنما ساد الشك عصره كله ، لا هو وحده :

وقد هدم التيقن فى زمان حصلنا من حجاج على التظنى

٣١٧:٢

وما العلم إلا ظن فحسب :

ومن عجب دعواك علما وحكمة وعليك شيء قيل بالظن أو حذى

٣١٨:٢

بل قد اختلط العالم ، فلا تطلب لبابا صريحا :

ولا تطلبن اللباب الصريح فقد سيطر عالمنا وامتزج

٢٧٦:١

وهكذا ينبنى أبو العلاء اليقين :

(١) الفصول والغايات ص ١٩ (٢) المصدر السابق ص ٢٩ (٣) هوالى البحر كهوام

البر ، والدأماء البحر .

أما اليقين فلا يقين ، وإنما أقصى اجتهدى أن أظن وأحدس

٢٨:٢

نعم، إنه يننى يقين علمه بالغد ، فى هذا الموضوع الأخير ، فهل تراه لا يننى اليقين إلا فى الأمور الغيبية ، ولكنه لا يتغيه فى عالم الشهادة ، ولا يبسط ظل الشك على هذا العالم (١) ؟... إن حسبت ذلك ، فاستمع إليه ، إذ يننى العلم فى الظواهر الطبيعية وتعليلها فيقول :

لا يعلم الشرى ما ألقى مرارته إليه ، والأرى لم يشعر وقد عذبا (٢)
سألتونى فأعيتنى إجابتهكم من ادعى أنه دار فقد كذبا

٨٢:١

وإذ يعان أنه لم يلق جوابا لسؤاله عن الحقائق - مطلقا - الأحرف جحد:
سألت عن الحقائق كل قوم فما ألفت إلا حرف جحد

٢٣١:١

فعنده أن لا سبيل إلى المعرفة :

ليل بلا نور ، أجن بهممه حبس الأدلة ليس فيه منار

٢٧٦:١

والناس فى تيه بلا أمر والله يفصل عنده الأمر (٣)

٢٧٧:١

وهو يقسم أنه لا هو يدرى ، ولا عالمه يدرى - مطلقا -

آليت ، ما أدرى ، ولا عالمى من كوكبى فى الحندس الداجى !

١٧٤:١

وقد قدر ألا تسير الأمور ولا تختبر ، فتلك طبيعتها :

الليل والإصباح والقيظ والبراد والمنزل والمقبرة

كم رام سبر الأمور من قبلنا فنادت القدرة : لن تسبره

٣٠١:١

(١) ذكرى أبى العلاء - ط أولى ص ٣٤٣ (٢) الشرى الحنظل (٣) الأمر العلم

والرأى عنده ما قال (في الفصول ٢٧١) « والعقول ضالة في ملك الله أشد ضلال،

ولیکن أهذا هو العقل الذى بلغ لدى أبى العلاء من الشأن ما بلغ ومجده هذا التمجيد كله ... !؟ نعم : إنه ليس سلس القياد ، وهو غير عليم ، ينقاد حيناً وينفر حيناً : وأشعر أن العقل يصحب تارة وينفر أخرى وهو غير عليم

٢٥٥:٢

وأن الطبع يحاربه فيفله ، كالشمس يسترها الغمام وظله :

يتحارب الطبع الذى مزجت به مهج الانام وعقلهم فيفله
ويظل ينظر ، ما سناه بنافع كالشمس يسترها الغمام وظله

١٦٠:٢

وهام أولاء الناس ، لم يغنهم طول إعمال عقولهم :

وقد أعمل الناس أفكارهم فلم يغنهم طول إعمالها

٢١٣:٢

إذن فهى سفسطة ، وليس ما أصلوه من أصول إلا وهما توهموه

كبار أناس مثل جلة سائهم يربون أطفالا ، كما ارتضع البهم
توهم بعض الناس أمرا فأصلوا يقين أمور ، بات يتبعها الوهم

٢١٩:٢

هكذا قال المعرى فى مسألة المعرفة : فمن أى المفكرين نعهده ...؟؟

هل نعهده فى السفسطائيين ، لأنه نفى المعرفة ، وأقسم على نفيها : ونفاها فى
الدينيات والدينيات ، وفى الغيب والشهادة ... ؟ لا ؛ إن نعهده فى السوفسطائيين ،
لأن المتفلسف السوفسطائى ، رجل يطمئن إلى عجز العقل عن المعرفة ، ويلتزم
ذلك ولا يحيد عنه ، فلا يبتغى الحقائق ولا يلتمس القياس ولا يحمل العقل

نبياً ، وصاحبنا ، على ما سمعنا ، قد أثبت إمكان الوصول إلى الحقيقة ، وعدد
وسائطها ، وشاد يذكّر العقل على نحو ما رأينا ، وأكثر في ذلك كله إكثاراً
واضحاً . . .

فهل نعد المعري لا أدرياً ، شكاكاً (١) . . لا أيضاً ، لن نعه في الرئيسين . .
لأن المتفلسف اللا أدري رجل ، لا يرى طريقاً للتثبت ولا سبيلاً للاستيقان .
ويلتزم ذلك فلا يستيقن حيناً ما ، ويأتم بالعقل حيناً ما ، كما فعل أبو العلاء
وشهدنا ما قال في ذلك . .

هلا نعه عقلياً لأنه رفع من شأن العقل ، هذه الرفعة وجعله نبياً ، وابتغى علم
الغيوب بالظن والتجربة ، ودفع الحيرة بالاستدلال . . . والنخ مما قدمنا قريباً ؟؟
ولكن لا . أيضاً . لن نعه في العقليين . لأنهم ثابتون في مكانهم . لا يثبتون
من طرف إلى طرف . بين يوم وآخر . ولا يرون العالم مجموعة غير قابلة
للتعليل ، حتى في مرارة المر ، وحلاوة الحلو . وفي القبط والابراد ، ولا يقرون
سيطرة الشك ، واضطراب النواميس ، وحكم القدر بالأشياء ولا
تختبر ، كما سمعنا أبا العلاء ينادى . . .

فإذا يكون أبو العلاء ، أن لم يكن سفسطائياً ، ولا شكاكاً ، ولا مستيقناً ؟؟
هذا سؤال نرجى الجواب عنه الآن . . نرجته حتى نفرغ من الإجابة عن
سؤال أسبق منه ، وهو . . —

(١) في الهلال مجلد ١٥ ص ٢٠٨ : « ويقال في الأجل أنه كان متردداً في أحكامه على هذا
الوجود من قبيل الفلاسفة الذين يقال لهم « لا أدري » أي أنهم إذا سئلوا عن هذا الوجود
اعترفوا أنهم لا يدرون مصيره ولا يدركون كنهه ، وما يدل على ذلك من أشعاره قوله :
لا كانت الدنيا فليس يسرفني أني خليفتها ولا محمودها
وجهت امرئ غير أني سالك طرقاً وختها عادها ونمودها
إلى ستة أبيات بعد هذا من تلك القطعة . . ولكننا نقول : وما يدل على غير ذلك من أشعاره
الكثير الذي قرأته قريباً !!

هل لأبي العلاء آراء ثابتة ؟

أمن الممكن أن يكون أبو العلاء ، قد تنقل في مسألة المعرفة هذا التنقل ، ولكنه فيما وراء ذلك ، من أبحاث الفلسفة في شؤون العالم ، والإنسان ، قد التزم آراء بعينها ، وثبت عليها حياته كلها أودهرها منها ؟ هذا ما نريد النظر فيه . ولا نقصد من ذلك الى مشكلات الالهيات ومعنياتها ، ولا معقدات الرياضيات وغوامضها ، وما الى ذلك من دقائق الفلسفة ، نلتبس فيها للمعري رأيا ثابتا ، بل نؤثر أن ننظر في الفلسفة العملية ، من الشؤون الإنسانية ، التي تمس حياة الرجل من حيث هو انسان مفكر ، لا بد أن يتأثر سلوكه بتفكيره ، كما هو الاصل في الفيلسوف دائما . . . وعلى هذا سننظر فيما عرف وشاع من زهد أبي العلاء ، وتحريم الحيوان ، ومجافاة المرأة ، وكراهة النسل ، وما الى ذلك . نتبع فيه رأيه واحتجاجه ، ونرى مقدار ثباته على رأيه ، والتزامه له ، ومتى وكيف كان منه ذلك . . . ؟

زهد أبي العلاء

وننظر الى الزهد والنسك بعامه ، فنسمع أبا العلاء يقول ناثرا « أنسك ، وفي مشيك فسك — امش هونا — فعل جائع ، وجد قترك ، لا مضطر . أكل فأبرك ، وأعان الله رجلا كالعود الهرم ، لا حلب عنده ولا طلب » (١) وأما في الشعر ، فهو المفضل عيش الفاقة على عيش الغنى ، وزى الراهب على زى الملك :

وأفضل من عيش الغنى عيش فاقة . ومن زى ملك رائق زى راهب

ويأمر بالارتياح إلى النسك وأصحابه :

إلى النسك ارتح وأصحابه إذا فاك القوم لم يرتح

١٨٧:١

ويجعل النسك فوزا يأمر به

ففوزوا بنسك في الحياة وثبتوا لاقدامكم في الارض قبل انهارها

١٣٠:١

وعصا النسك عنده أحمى من رمح عامر العامرى ، وأشرف من قوس

حاجب بن زرارة :

عصا النسك أحمى ثم من رمح عامر وأشرف عند الفخر من قوس حاجب

٩٦:١

وهو بين هذا النسك ، فيرى أن الحق منه ، ما كان عن يسر ، في صحة ،

واقتماد ، وذلك هو الدين عنده :

الدين هجر الفتى للذات ، عن يسر في صحة ، واقتماد منه ما عمرا

٢٩٥:١

ويكون النسك والمرء شارخ ، أما التنسك بعد سن الأربعين فضرورة

تنسكت بعد الأربعين ضرورة ولم يبق إلا أن تقوم الصوارخ

فكيف ترجى أن تثاب ، وإنما يرى الناس فضل النسك والمرء شارخ

١٨٨:١

ولا قيمة عند هذا الزاهد لكل ما تعطى وتملك من حطام

وتضن بالشئ القليل : وكل ما تعطى وتملك ما له مقدار

٢٦٧:١

وأهون بالمال عنده :

والمال كالتابع ، أهون به ورب يسر في قوام العدم

٢٧٧:٢

وعنده أن الغنى أصناف ثلاثة : فالغنى الأكبر هو الموت ؛ والغنى الأوسط
القناعة ، وثالثهما غنى المال ، فاستغن عن المحذور بالمباح (١)

وهو يسوى بين الغنى والفقر

وإن الغنى والفقر في مذهب النہی لسیان بل أعفی من الثروة العدم

سقط الزند ٥١:٣

الفقر أروح في الحياة من الغنى

والفقر أروح في الحياة من الغنى والموت يجعل غائلا كمخول (٢)

٢٠١:٢

والفقير أقل الناس هموما وحسرة ، كفاقد الرشد :

أقل بنى الدنيا هموما وحسرة فقيد غنى للمال والرشد عادم

٢٢٦:٢

وقد احتقر أصحاب التمتع وعدم نعاما :

كأن ذوى التمتع فى البرايا نعام ، راح يلتقط الہیدا

٢١٨:١

وهتف المعرى هتفة ؛ أشبه بهتاف المسيح عليه السلام : من شاء التخلص من
أذى الدنيا فليحط أثقاله ، وليتبعنى :

حياة ، وموت ، وانتظار قيامة ثلاث أفادتنا ألوف معان

فلا تهمر الدنيا المرومة ، إنها تفارق أهلها فراق لعان

ولا تطلبها من سنان وصارم ضراب ييوم أو ييوم طعان

(١) الفصول ص ٣٥٧ (٢) الحائل واحط الحول من النعم والعبيد والاماء وغيرهم ، والمحول

الذى أعطى المال

وإن شئتما أن تخلصا من أذاتهما فخطا بها الأثقال واتبعاني

٣١٠:٢

لو أن كل نفوس الناس رائية كراى نفسى، تنامت عن خزايها
وعطلوا هذه الدنيا فـا ولدوا ولاقتنوا، واستراحوا من رزايها

٣٥٠:٢

وحول بلباقته اللفظية أسماء الجواهر والمعادن إلى ألم وايداء، فقال فى ذلك
ناثرا :

الفضة تفض خاتم الديانة ، والدر يدرك المعصية ، والنضار يترك الأوجه غير
نضرات (١) كما يقول شاعرا :

وما نلت مالا قط إلا ومال بى ولا درهما ، إلا ودربى الهـم

(سقط) ٥١:٢

ما فضة الانسان إلا فضة والتبر تبير، وجدك ظاهر

والدر در للموم تسره إن الجواهر بالأداة جواهر

٢٦٥:١

وحصلت من ورق على ورق بيض يشق متونها الحبر

فضت نهاك ، بفضة سبكت ولقد قضى بتبارك التبر

٢٧٨:١

وطالمـا هوّن أبو للعلاء من أمر الملك

لكون خلك فى رسم أعز له من أن يكون مليكـا عاقد التاج

الملك يحتاج آلافا لتنصره والميت ليس إلى خلق بمحتاج

١٧٠:١

فعنده أن المليك ، هو الفقير المحتاج

والمـلك فينا هو الفقير لما يلزمه من معونة الخدم

٢٧٣:٢

وهو يحرض على ترك لذات الملوك لهم.

فاترك لأهل الملك لذاتهم خسينا الكمأة والاحبل (١)

١٦٢:١

وكره لنفسه أن يكون مسلحا، وجهر بذلك مرارا:

وما أختار ، أنى الملك ، يجي إلى المال ، من مكس وخرج

١٧١:١

أسر أن كنت محمودا على خالق ولا أسر بأنى الملك محمود

لا كانت الدنيا ، فليس يسرنى أنى خليفتها ولا محمودها

٢٠٨:١

محمودنا الله ، والمسعود خائفه فقد عن ذكر محمود ومسعود

٢٣٠:١

فمن مبلغ هنى المالك معشرا عليا ، ومحمودا ، وخانا وآلكا

فما أتمنى اننى كاجلكم ولكن أضاهى المقترين الصعالكا

١٣٢:٢

ويرى رفض السيادة على الناس ، ولو سودوا الشخص ، لأنهم أشرار :

لاخير فى الناس إن ألقوا سيادتهم إليك طوعا فخالقهم ، ولا تسد

٢٧٧:١

وينهى عن ولاية الشئون العامة ، إمارة أو إمارة ، أو خطابة :

أنهاك أن تلى الحكومة ، أو ترى حلف الخطابة أو إمام المسجد

وذر الامارة واتخاذك درة فى المصر تحسبها حسام المنجد

تلك الأمور كرهتها لأقارب وأصادق فابخل بنفسك أو جد

٢٣٤:١

ويرى أن العلا جملة يجلب الشر

والشر يجلبه العلا ، وكم شكا نبأ على ، ما شكاه قنبر

٢٦٣:١

ويحذر من لصوص الأمانى ، وويلات النفس بها :

فاحذر لصوص الأمانى ، فهى سارقة ردت عن الدين قلب المرء منقوبا

٨٦:١

فويح النفس من أمل بعيد لاية غاية فى الأرض تجرى

٣٢٣:١

ويعرض على أعمال النسك ، ومظاهر الزهد ، من مشاركة الفرس الشعير

إذا غلا البر ، والتحلية بالزبيب ، والالتدأ بالزيت ، والشرب فى الفخار ،

والاكتفاء بالساتر من الثياب ، وما إلى ذلك ، وترى هذا فى نثره إذ يقول :

دباغة من المأكلى ، وحاجب من السترات ، ومذهب للظما من الأمواه ،

خير من مال غمر ، ونهى وأمر ، وعسل وخر ، فصول ٣٩١

كما تقرأه فى شعره :

وإذا غلا البر النقى فشارك الـ فرس الكريم ، وساو طرفك تمجد

واجعل لنفسك من سليل ضيائها أدما ونزر حلاوة من عُنْجِد (١)

وارسم بفخار شرابك ، لا ترد قدح اللجين ولا إناء المسجد

يكفيك سيفك من ثيابك ساتر وإذا شتوت فقطعة من برجد (٢)

٢٣٤:١

جشِبَ كفاك مطاعا ، وعباءة أغتكت ، أن تتخير الأوبار

٢٧٠:١

وأنت إذا استعملت أكواب مسجد أسأت ، ويجزيك الإناء من الصفر

٣٠٨:١

قض الزمان ، بأجمال وتمشية للأمر ، إن وراء الروح مغولها

والورد يكفيك منه شربة حملت فى الركب إن منعك الأرض جدولها

١٧١:٢

وإن طلب الرزق طالب فليطلبه في الروض ، لا في الوغى بأسنة ومناصل ،
وليتشبه بالطير تغدو خماسا ، وتعد اليسار ملء الحواصل :

واطلب الرزق بالمرور من الشجرراء ، لا من أسنة ومناصل
وتشبه بالطير تغدو خماسا وتعد اليسار ملء الحواصل
٢١٦:٢

ولا يتطلع المتنسك لجمال ، فهذا مفسد لنسكه :

إذا قيل إن للفتى ناسك ورام الجمال ، فلا نسك له

١٨١:٢

وحين يرشد إلى ذلك ؛ لا يترك أن يصف أمر نفسه في النسك ؛ وأنه فعل
مثل هذا ، الذي نصح به . فأبو العلاء في قوله ، رجل لا يحب ولا يكره ؛ عاش
من أيسر حل ، وتشبه بظل :

يا صاح ، بما أهوى ، وما ألقى ثقل على ، فلا تزد ثقل

٢٠٦:٢

عشت من أيسر حل وتشبهت بظل

٢٠٦:٢

يفرح باليسير ، ويقنع :

من مذهبي ألا أشد بفضة قدحى ، ولا أصنى لشرب معوج
لكن أقضى مدق بتقنع يغنى ، وأفرح باليسير الأروج
هذا ولست أود أنى قائم بالملك ، في ثوبى أغر متوج

١٧٣:١

فيقنعه ستره ، ودفعه ، قد شرب بالخزف ، وتغنى في الأمور ، فنابت قدماه

عن المركب :

مقنمى من الزمان سترى ودقنى من لباس راق العيون وفرش

قد شربت المياه بالخزف الوحش ، فأغنى عن محكمات بخرش (١)
وتغنيت في الأمور ، فنابت قدماى عن ركوب دم وبرش
٥٤: ٢

قوته غناه ، وطمره ساتره ، والتقى كنزه :
قوتي غناى ، وطمرى ساترى ، وتقى مولاي كنزى ، وورد الموت موعودى
٢٣٠: ٢

لباسه ليس بالملون ، وقوته يأبى مثله الفصيح والألكن :
لباسى البرس ، فلا أخضر ولا خلوقى ، ولا أدكن (٢)
وقوتى الشئ أبى مثله فصيح هذا الخلق والألكن
٢٨٧: ٢

قد ترك أعمال الدنيا ، لا يحفر بثرا ، ولا يعرش نخلا ، ولا ولا ... :
ما أنا بالواغل يوما على الله رب ولا مثلى بالوارش (٣)
لأعرش الجفر ، ولا النخل فى الدنيا ، وما تبقى يد العارش
٥٣: ٢

(١) الوحش : الردى ، والخزف : المنقوش (٢) البرس : القطن وأشبهه به
(٣) الوارش : الداخل على الآكلين

تحريم الحيوان

وإذا نظرنا إلى النسك والزهد نظرة خاصة تفصيلية ؛ فسنجد أبا العلاء ؛
يكره الذبح والدم ، إذ يقول ناثرًا : إذا غمس القوم أيديهم في الدم ، فاعمس
يدك في ماء الغدير - فصول : ١٢٩

وعنده أن لا نسك للأسد مادامت تخافه النعم والوحش :
مادامت الوحش والأنعام خائفة فرسا فما صح أمر النسك للأسد

٢٢٧ : ١

ويكفيه أدام الزيت ، لم يرق له دم ، ولا مس الروح بسبب جريه ألم :
يكفيك أدام سايط ؛ ما أريق له دم ولا مس روحا إذ جرى ألم

٢٢٩ : ٢

فهو يعيب على الناس أكل أكباد الحيوان ، وطلبهم الممنوع من
هذه الأكباد :

ولم تكفكم أكباد شاء وجامل ووحش إلى أن رمتمو كبد الضب

٩٥ : ١

ولو أنصفوا لأعفوا لحوم السوام من الطبخ والإغلاء والإفضاج :
لو أنصفوا نزهوا سوامهمو عن غليان الكسور في البرم (١)

٢٧٢ : ٢

وهم بأكلهم اللحوم يجعلون أجوافهم مقار ، ويصونون دماءهم ويجعلون
دماءها جبارا :

قد صير الإنسان في أحشائه قبرا لغانية عن الأقبار
ما جاد من دمه المصون بقطرة وأجاد وصف دماؤها بجبار

٣٤٢ : ١

وهو ينهى عن إرهاف المدى للاعتباط ، نهيه عن سل السيف الأقران :
ولا ترهف مدى لعبيط نحض ولا تشهر على قرن صقيلا (١)

١٧٤:٢ ويغلنها رقة حس ، كره معها مظهر العنف في هذه الدنيا ، فنهى عن طلب
(الدنيا والعيش بالسيف :)

ولا تطلباها من سنان ومصارم بيوم ضراب ، أو بيوم طعان

٣١٠:٢

ونهى عن سل السيف مطلقا :

ولا تشيمن حساما كي تريق دما كفاك سيف لهذا الدهر ما غمدا

٢١٥:١

كفتك حوادث الأيام قتلا فلا تعرض لسيف أو لرمح

١٨٦:١

وكره الحديد ، حتى المروء يسبر به الجرح ، إذ اقترن عنده بالسيف ، فنهى
عن استعماله :

فإن ترشدوا ، لا تخضبوا السيف من دم ولا تلزموا الأميال سبر الجراح

١٨٤:١

وهكذا أمن الحيوان والطير ، كما أمن السمك إذ نهى عن أكله كغريض

الذبائح :

فلا تأكلن ما أخرج الماء ، ظالما ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح

ولا تفجعن الطير ، وهى غوافل بما وضعت ، فالظلم شر القبائح

١٨٤:١

ولم يقف التحريم عند ذبحها ، بل رأى أبو العلاء ، أن الحيوان إنما يعمل

لنفسه ، كما خلقت الخيل إلا لتركض في حاجاتها :

لم تخلق الخيل ، من غر ومصمتة إلا ليركض في حاجاته الفرس

٢١:٢

وما جمعت إلا لأنفسها النحل ، ولو علمت بمشتارها ما عسلت :

خف الله حتى في جنى النحل ذفته فما جمعت إلا لأنفسها الدبر (١)

٢٤٥:١

تق الله ، حتى في جنى النحل شرته فما جمعت إلا لأنفسها النحل

١٤٨:٢

فما أحرزته كي يكون لغيرها ولا جمعته للندی والمناخ

١٨٤:١

لو تعلم النحل بمشتارها لم ترها في جبل تعمل

١٦٤:٢

وهكذا نهى عما يعطى الحيوان ، فنهى عن اللبن ، إذ قال :

ولا يبيض (٢) أمات أرادت صريحه لأطفالها دون الغواني الصرائح

١٨٤:١

وكره مشاركة الجدى في لبن أمه :

لا أشرك الجدى في در يعيش به ولا أروع بنات الوحش والضان

٣١٦:٢

لا أفجع الأم بالرضيع ولا أشرك هذا الفرير في اللبن

٣٢٤:٢

كما نهى عن البيض :

فلا تأخذو دائع ذات ريش فمالك أيها الإنسان بضته

٢٩٥:٢

(١) الدبر : جماعة النحل

(٣) ذكر أبو العلاء هذا البيت في مراسلته لداعي الدعاة معجم الادباء - ١ - وقال بعده في الرسالة ما نعه المراد بالابيض اللبن ، ومشهور ان الام اذا ذبح ولدها وجدت عليه وجدا عظيما وتوفر على أصعاب امه ما كان يرضع من لبنها ، وقد روى البيت في الرسالة هكذا : وأبيض أمات أرادت صريحه

كما نهى عن عسل النحل :

ودع ضرب النحل الذى بكرت له كواسب من أزهار نبت فوانح

١٨٤:١

قد غدت النحل إلى نورها ويحك يا نحل لمن تكسين؟

يجىء مشتار بالآلاته فيلسب الأرى ولا تلسبين (١)

أتحسين العمر، علماً به؟ لا، بل تعيشين ولا تحسينين

٣٣٢:٢

ولم يقف الأمر عند الذبح، ولا أخذ الثمار الحيوانية، بل كره أبو العلاء

كل ترويع للطير، والحيوان، ونهى عنه :

لا ترع الطائر يغذو بجه يلتقط الحب لكى يمججه (٢)

١٦٨:١

وبكى الطائر يضربه قى فيقتله، أو تنصب له الحباله، فيقع فيها، وهو

المغنى الهاتف :

وابك على طائر، رماه قى لاه، فأوهى بفهره الكتفا

أو صادفته حباله نصبت فظل فيها، كأنما كتفا

بكر يبنى المعاش مجتهدا فقصر عند الشروق أو تنفا

كأنه فى الحياة، ما فرع الـ غصن، فغنى عليه أو هتفا

٩٤:٢

ووصف فى تفصيل مصرع حمامة فى اللزوميات (١) ٢٥٢ .

وقال عن نفسه، إنه لا تخافه الطيبات، ولا الطير، لأنها تشبهه فى الضعف :

فيا طائر ائمنى ويا طيرى لا تخف شداى، فما بينى وبينكما فرق

١٠٣:٢

وما الطيبات، منى خائفات وردن على الأصائل أوربضنه

٢٩٥:٢

لقد أمنتني الأدماء، أضحت تراعى في مراتعها ظلياً

٣٦٣:٢

وآلمه ضرب الجمل واعتده ظلياً له، وطلب الرفق به

ياضارب العود البطل مظهره لا وزر يحمله كوزر الضارب
ارفق به فشهدت أنك ظالم في ظالمين أباعد وأقارب

١١٦:١

كما رابه ضرب العير بغير ذنب، وعده جهلاً، ووصف عناء هذا العير

وما يلقاه :

لقد رابني مغدى الفقير بجعله على العير ضرباً ساء ما يتقلد
يحملة ما لا يطيق فإن ونى أحال على ذى فترة يتجلد
يظل كزان، مفتر، غير محصن يقام عليه الحد شنعاً فيجلد
تظاهر أبلاد الرزايا بظهره كشجيه فاعذر هاجزاً يتبلد

١٩١:١

بل لم تقف شفقتك عند المستأنس من الحيوان، إنما تجاوزته إلى الوحش
والهوام فنهى عن طرد الوحش نفسه :

لا تطرد الوحش فما يابث لا مطرود في الدنيا ولا الطارد

٢١٢:١

وكره قتل البرغوث - فصول ٣٥٦ - وعد تسريحه إياه خيراً من درهم

تعطيه لمحتاج . وسوى بينه وبين الملك في حب الحياة :

تسريح كفى برغوثاً ظفرت به أهر من درهم تعطيه محتاجاً
لا فرق بين الأسك الجون أطلقه وجون كندة أمسى يعقد التاجا
كلاهما يتوقى والحياة له حبيبة ، ويروم العيش محتاجاً

١٦٨:١

هذا زهد أبى العلاء ، وطعامه ، وصلبة ما بينه وبين الحيوان أعلاه وأدناه ،

وأحاسسه لآلامه ، فكيف نظر هو إلى الحياة . ؟

very nice

كراهته الحياة

لقد انصرفت نفس أبي العلاء عن الحياة وبرم بها نائرا ، وشاعرا ،
فقال : إني بالحياة لبرم (١) ... ما البقاء ، إلا طول شقاء . والحياة ظلمة ، ليس
فيها إياة (٢) ؛ وفي شعره يقول : إن البقاء رزء :

بقائي في الدنيا على رزية وهل أنا إلا غابر مثل ذاهب

١٠٠:١

والدهاء له بطول البقاء ، إنما هو دعاء عليه :

دعائي بالحياة لأخو وداد رويذك ، إنما تدعو عليا

٣٦٣: ٢

وحب الدنيا غرور :

وحب الأنفس الدنيا غرور أقام الناس في هرج ومرج

١٧١: ١

وحبها أس إمامة الجمل :

وحبك هذى الدار ، أس إمامة لجهلك ، والبادي على باطن ستر

٢٤٥: ١

ومحبها رهين ذلة وصغار :

ومن هو في الدنيا الكذوب ، فإنه رهين ، بشوي ذلة وصغار

٣١١: ١

{ وتفنن في التنفير من المعيشة والبقاء ، فالعيش علة ، والردى هو البرء منها ،
وما العيش إلا علة ، برؤها الردى نغلى سبيلي ، أنصرف لطياتي

١٤٦: ١

والعيش حرب يضع الحمام أوزارها :

والعيش حرب ، لم يضع أوزارها إلا الحمام ، وكلنا أوزار

٢٧٣:١

وهو في الحياة عان ، تفك المنية إساره :

ومن العجائب ، أننى عان بها أرجو المنية أن تفك إسارى

٣٤٠:١

وقد طال بالحياة ، وقوفه وراء الجسر ينتظر العبور :

طال وقوفى ، وراء جسر وإنما ينظر العبور

٢٦١:١

عبر الناس ، فوق جسر أمامى وتخلفت لا أريد عبورا

٣٠٢:١

والحياة صوم ، ويوم الممات عيد :

صمت حياتى ، إلى عماتى لعل يوم الحمام عيد

٢٠٥:١

أنا صائم طول الحياة ، وإنما فطرى الحمام ، ويوم ذاك أعيد

٢٠٨:١

طال صومى ، وأست أرفع صومى ووفودى على المنية فطر

٢٨٠:١

وكم تمنى في الحياة حال الجماد ، لا يحس ، ولا يشتهى :

عز الذى أعنى الجماد ، فما ترى حجرا ينص بما كل أو يشرق

متعبا ، فى صيفه وشتائه ما ريع قط للملبس يتخرق

متجلدا ، أو خلته متبلدا لا دمع فيه ، بفادح يترقرق

لا حس يؤلمه ، فيظهر مجزعا إن راح يضرب ما طس أو معارق (١)

لم يغد غدوة طائر متكسب وافاه ياقط ، أجدل أو زرق (٢)

١٠٩:٢

(١) المنطس حجر عريض . او تخف البعير -

(٢) الزرق طائر -

أما الجهاد فإني بت أغبطه إذ ليس يعلم ، إما زاد ، أو محقا
لا يشعر العود بالنار التي أخذت فيه ، ولا الأصهب الداري إذ سحقا

١١٥:٢

أجسما فيه هذى الروح ، هلا غبطت لفقدما الألم السلا ما

٢٤٩:٢

تمنيت أنى من هضاب يللم إذا ما أتانى الرزء لم أتلم

٢٥٢:٢

وأبو العلاء لم يفتنه التفكير فى الاتجار ، فهو يقول : لو أمنت التبعة ، لحاز
أن أمسك عن الطعام والشراب ، حتى أخلص من ضنك الحياة ، ولكن أرب
غوائل السيل - ف ٣٦٠ -

وذكر مثل هذا فى الغفران - ١٢٤ - فقال : قد كدت ألحق برهط العدم ،
من غير الأسف ولا الندم . ولكنما أرب قدومى على الجبار . ولم أصلح نخل
بأبار . ، ويذكر بعد ذلك رأى بعض الحكماء فى مخالفة هذا ، وحكمة الله فى
حجز الرجل عن الموت ، لئلا يرغب كل من احتدم غضبه فى الموت ، فيقول انظر حى
(١٢٤ ، ١٢٥)

ويعود الى فضل الموت بعد يسير - ص ١٢٧ - فيقول . وإن رمس
المالك لبنت الحق ؛ وإن طرق بالملم الاشق . على أنه يغنى الثاوى به بعد عدم ،
ويكفيه المؤنة مع القدم . وإن الجسد لمن شرخب ، يبعد من سبي وسب .
قال الضى

ولقد علمت بأن قصرى حفرة ما بعدها خوف على ولا عدم
فأزوربيت الحق زورة ما كث فعلام أحفل ما تقوض وانهم

٢٧٧:٢

وما زالت العرب تسمى القبر بيتا . وإن كان المنتقل إليه ميتا ، قال الراجز :

اليوم يبني لدويد بيته يارب بيت حسب بيته
ومعصم ذى برة لويته لو كان للدهر بلى أبلته
أو كان قرني واحدا كفيته

هذا من حديثه عن كره الحياة . . أما حديثه في ذم الدنيا ، وبيان مساوئها
فشيء لم أعرض له ، وهو يوزن في الكثرة بما قيل في كرهها ، ويتصل به

وإذا زهد أبو العلام هذا الزهد ، وكره الحياة هذه الكراهية ، فكيف

نظر إلى جماعات الناس في صورها الصغرى أو الكبرى . . ؟؟ كيف نظر إلى

الأسرة والمرأة . . ؟؟ وكيف نظر إلى الشعب والأمة . . ؟؟

الأسيرة والمرأة

كره أبو العلاء الأسيرة، فكره المرأة، ودعا إلى مجازيتها، فقال إياك والجنب، إلى زينب، ولا يغريتك النقاب، بما تحت الحجاب، فإن النفس موكلة بالضلال (١) .. وبين في شعره مساوى المرأة كثيرا، فهي تارة عنده كالعقرب :

وانما الخوذ في مساربها كربة السم في تسربها

١١٧:١

وتارة حبل غي :

الا إن النساء حبال غي بهن يضيع الشرف التلبد

٢٠٧:١

والنساء كالأسود، يجب توقين :

توقوا سبيل الغايات، فكلها كليث الشرى، والطيب فيها فرائق (٢)

١٠٥:٢

وهن عنده مثال ضعف العقل :

في الحرب عقل رجال، إن هم وقتلوا وفي الحجا عقل نسوان، لها مسك (٣)

١٢٩:٢

كما أنهن أذى وكيد :

ولولا أنهن أذى وكيد لما أصبحن في كلل حبسهن

والنساء من جميع الأديان سواء في ذلك :

وساو لديك أتراب النصارى وعينا من يهود ومسلمات

١٠٥:١

(١) الفصول من ١٥٩ (٢) الفرائق : الذى ينذر قدام الاسد

(٣) المسك : ما يمسك الماء

وصاحبنا يرثي لمن يلد الاناث ؛ ويعدد متاعهن :

وإن تعط الاناث فأى بؤس تبين فى وجوه مقسمات !
يردن بعولة ؛ ويردن حليا ويلقن الخطوب ملومات !
ولسن بدافعات يوم حرب ولا فى غارة متغشيات !

وقد يفقدن أزواجا كراما فيا للنسوة المتألمات !!
يلدن أعاديا ؛ ويكن عارا إذا أمسين فى المتعضيات !!
يرعنك إن خدمن بغيرفن إذا رحن العشى مخدمات !

١٠٢:١

ودفنهن إحدى المكرمات ، والدفن أوفى لهن من الكلال والحدور ؛ وزيارة
قبر الأوانس ، خير من أن يقال عرائس
ودفن والحوادث فاجعات لا حذاهن إحدى المكرمات

١٢٥:١

ودفن الغانيات لهن أوفى من الكلال المنيع والحدور

٣٥٢:١

إن الأوانس أن تزور قبورها خير لها من أن يقال عرائس

٢٦:٢

وإذا كان هذا شأنهن ؛ فبده السعادة أن لم تكن خلقت امرأة :

بده السعادة ؛ أن لم تخلق امرأة فهل تود جمادى أنها رجب

٦٥:١

وهو يذكر عن فتنهن ؛ ماشاء الله أن يذكر ، فمن ظالمات ، فوارس فتنه ،

أعلام غي :

أولات الظلم ؛ جئن بشر بظلم وقد واجهتنا متطلبات
فوارس فتنه ، أعلام غي لقينك بالأساور معلبات

١٥١:١

وسواس حلين كوسوسة إبليس :

أبليست من وسواس حلي ، خلته إبليس ، وسوس في صدور الناس

٤٣:٢

والمعصرات منهن عواصف صنيعها الأعصار :

والمعصرات من الخرادعواصف كالمعصرات صنيعها إعصار

٢٦٧:١

وعلى هذا الأساس جاءت آراؤه في تعليمهن ، وعبادتهن ، واختلاطهن ،

وحجابهن ، ونظام حياتهن ، حتى انتهى إلى أن خدر العروس المحببة ، أدهى

وأفتك من عريسة الأسد : (١)

خدر العروس ، وإن كانت محبة أدهى وأفتك من عريسة الأسد

٢٢٧:١

وأرى العروس تحجبت في خدرها كعريس الأساد في الأخدار

٣٤:٥:١

فقبح الزواج والزوجة :

تزوجتها وهي فيما تظن شمس الضحى ، بأواق ؛ ونش (٢)

ينوش بها القلب أوطاره فليت ماآربه لم تنش

عروسك أفى فهب قربها وخف من سليلك فهو الحنش

٥٤:٢

فلو وفق المرء لم يتزوج والمرأة لم تزف :

لو وفق المرء لم يهبش إلى امرأة أو الغريرة لم تزف إلى رجل (٣)

١٩٢:٢

بل نهي عن الزواج إن لم يملك المرء فراق الدنيا سريعا :

فإن أنت لم تملك وشيك فراقها فغف ، ولا تنكح عوانا ولا بكرا

٢٨٣:١

(٢) النش : وزن عشرين درهما

(١) عريسة الاسد : مأواه

(٣) يهبش إليه - كنع - ارتاح

وأمر بمقاومة الغريزة والكف عن الزواج :

— فازجر غريزتك المسيئة جامدا واستكف أن تتخير الاصحارا

٢٧٤:١

وجعل الخصاص خيرا من زواج الحرة فكيف بغيرها، وقسا في ذلك لفظه :

خصاؤك خير من زواجك حرة فكيف إذا أصبحت زوجا لمومس

وإن كتاب المهر ، فيما التمسته نظير كتاب الشاعر المتلص

فلا تشهدن فيه الشهود وألقه إليهم ، وعد كالعاثر المتشمس

٣٢:٢

النسل

ومهما يكن رأى أبي العلاء في الزواج ، فإنه يرى الأمر الأحزم ، عدم النسل ، فيقول : " أظعن عن الدنيا ، وما أترك فيها عرساً تأتم ، ولا ولداً ييتم ، وذلك الأمر الأحزم ، إنما يترك الإنسان ولده للشقاء ، إما ضعیفاً يظلم ، وإما قوياً اهتضم ، وكلا الرجلين لا يسلم " - فصول ٢٧١ -

517 وهو يذكر هذا الحزم في شعره ، إذ يتسمح في الزواج لمن خاف المأثم ، فينصح له بالأنا ينسل :

نصحتك لاتنكح ، فإن خفت مأثماً فأعرس ، ولا تنسل ، فذلك أحزم

٢٢٠ : ٢

كل على مكروهه مبسل وحازم الاقوام لا ينسل

١٦٤ : ٢

ولست تلك نصيحتي للإنسان فحسب ، بل إن مهديت الورقاء لا تبني وكرا لفراخها كالانس :

إن كنت يا ورقاء مهدياً فلا تبني الوكر للأفراخ

١٩٠ : ١

والطيور كلها لو علمت علمنا ، وشعرت بما هو كائن لما اتخذت لأفراخها أوكارا :

هل تعلم الطير الغواذى علمنا ؟ أم لا يصح لمشلها أفكار

لو أنها شعرت بما هو كائن لم تتخذ لفراخها الأوكار

٢٧٥ - ١

وهو يأمر الطير بالأنا تفعل :

يا طائر ، أظعن من الدنيا ، ولا تذكر للفرخ ، واعتش للأرزاق وابتكز

٢١٥ : ١

فلا انسان بذلك أولى ولذا أمره بترك النسل :

دع النسل ، إن النسل عقباه ميتة ويهجر طيب الراح خوفا من السكر

٣٠٥:١

ابو، صلاء وعده النسل ذنبا لا إقالة له الأم : لا تنكح

أرى النسل ذنبا للفقى ، لا يقاله فلا تنكحن الدهر غير عقيم

٢٥٦:٢

وعده جناية على الأولاد ، مهما يكن مركزهم في الحياة :

على الولد يحنى والد ، ولو انهم ولاية على أمصارم خطباء

وزادك بعدا من بنيك وزادهم عليك حقودا ، أنهم نجباء

يرون أبا ، ألقاهم في مؤرب من العقد ضلت حله الأرباء

٣١١:١

ومن هنا كانت خير النساء العقيم :

إذا شئت يوما وصلة بقرينة خير نساء العالمين عقيما

٢٢٧:٢

والعقم خير للمرأة نفسها لو رشدت :

قد ساءها العقم ، لاضمت ولاولدت وذاك خير لها لو أعطيت رشدا

ما يأخذ الموت من نفس لمفرد شتا سواها ، إذا ما اغتال واحتشدا

٢١٥:١

وسبب ذلك عنده - على ما كرره - أن النسل فرش لهموم الفتى :

والنسل فرش لهموم الفتى والعقل مسلوب من الفارش (١)

٥٣:٢

والنسل أذى للآم :

أحاضنة الغلام ، ذمت منه أذاك ، فأرضى حنشا وضمي

قلو وفقت ، لم تسقى جنينا ولم ترضى الوليد ، ولم تهمل

لما نـ على أقاربك الأداني قيامك عن خديج غير تم
٢٦٥:٢
وهو مع فلك ، شقاء للوليد ، حتى لو أن الابن عق أباه ، لكافأه على
-جرمه ضده :

جنى أب ، دفع ابنا للردى غرضا إن عقى ، فهو على -جرم يكافيه-
٣٥٦:٢
ويقول أبو العلام ، إنه لو كان كلبا ، لما هان عليه أن يلقى جروه ، ما يلقى
الناس فى الحياة :

لو انى كلب ، لا عترتنى حمية لجروى ، أن يلقى كما لقي الانس
١٣:٢
وما دامت النهاية الموت ، والنسل عبثا ، وتربية الأولاد ، لرب المنون
فلط ، فاشتغل بما عساه ينفع ، لا بالنسل :

فدونك ، شغلا ليس هذا ، لعله يعود بنفع ، لا كـشغلك بالنسل
أبوك جنى شرا عليك ، وإنما هو الضب إذ يسدى العقوق إلى الحسل
١٨٤:٢

وتفنن فى بيان هذه المعانى ، فتمنى هقم حواء ، ولم يهج تفكيره إلا لوم
آدم ، وما إلى ذلك من بيان شر النسل وخطأ الناسلين .

الوحدة

وكذلك كان رايه في المجتمع الكبير ، وهو الامة ، رأى النفرة منه والهرب
فقال : « واهرب إلى الفضاء الامليس ، من شر الجليس ؛ والله ثاني المنفردين »

— فصول ص ١٥٢ —

وأعلن في الشعر ، أن شعاره « قاطع » ، إذا كان شعار تنوخ في القديم
« واصل » :

فر من هذه البرية في الأر ض فما غير شرها لك حاصل
فشعاري « قاطع » وكان شعارا لتنوخ في سالف الدهر « واصل »

٢١٦:٢

فالرأى عنده هجران الدنيا وساكنيها :

فالرأى هجرانك الدنيا ، وساكنيها فأنت من جود هذى النفس منجود

٢٠١-١

وبالغ في العزلة ، حتى طلبها حيا وميتا ، فتمنى ألا يشهد الحشر في الناس :

فيا ليتني لا أشهد الحشر فيهم إذا بعثوا شعنا رموسهم غبرا

٢٨٤ : ١

وطلب أن يوسد بموضع لم يحفر فيه قبر لأحد ، وجعل هذا رتبة لقبره
حسبها من رتبة :

إذا حان يومى فلا توسد بموضع من الأرض لم يحفر به أحد قبرا

٢٨٤ : ١

يا جدثى حسبك من رتبة أنك من أجداثهم معزلا

١٧٧:٢

وود لو مات في مهمه لتسبب له هذه العزلة :

وددت وفاتي في مهمه به لاعم ليس بالمعلم

أموت به واحدا مفردا وأدفن في الأرض لم تظلم
وأبعد عن قاتل ، لا سلبت ، وآخر قال ألا يا أسلمى
أحاذر أن تجعلوا مضجعى إلى كافر خان ، أو مسلم
إذا قال ضايقتنى في المحل لقلت أساموا ولم أعلم

٢٧٣-٢

وهو ينصح للورقاء بالعزلة ، إن هديت . ولا يقتصر على الإنسان :
وانفردى في بلد عازب عنا ، وعيشى ذات بال رخي

١٩٠-١

وهكذا رأى وحدته أنسا ، واجتماعه بغيره وحشة :

إذا حضرت عندى الجماعة أوحشت فما وحدتى إلا صحيفة إنسانى
طهارة مثلى فى التباعد عنكم وقرىكمو بجنى همومى وأدناسى

٣١ : ٢

ونفى أن فى الوحدة وحشة ، وحبذا وذكر زاياما عنده ، وعلاها تميلات
مختلفة متنوعة دينية تارة ، ونظرية طورا ، ونفسية حيناً ، وسنعرض لهذا
فى موضعه .

نظرة فى هذه الآراء

هذه آراء لأبى العلاء . لعالمها هى التى بها اشتهر ، وهى خطوط صورته عند
الناس ، وإنما - كما قدمنا - لا آراء فى الفلسفة العملية الانسانية ، متصلة بحياة
الإنسان أشد الاتصال وأقواه ، فهل ثبت أبو العلاء على هذه الآراء ؟
لنتظر قبل الإجابة عن هذا السؤال إلى صورة الرجل من جانب آخر ،
على الترتيب الذى اتبعناه فى عرض جانبها الأول فآما :

نصداً إلى القلاء

فقد أرانا فيه ، أكثر مما يرينا ناسك في شعاف جبل ، وأشهدنا أفضل ما وصفت به أوائل الرهبان ، ورؤوس المتصوفة ، فانجل معه قليلا ، نقاب من دواوين أدبه صحفاً أخرى . . . فهذا هو في الغفران - ١٦٧ - ينتقص الزهد فيقول : « وما علمنا هذا (١) النسك موفيا ، ولا في الأسباب الرافعة مرقيا ، والعالم بقدر عاملون ، أخطأهم ما هم آملون » . . . وهو في موضع آخر من هذه الرسالة - ١٨٢ - يعان يأسه من النسك إذ يقول : « ولا عندد عن الجبلة ، يريد المتسك أن يصرف حبه عن العاجلة ، وليس يقدر على ذلك ، كما لا تقدر الظبية أن تصير لبوة ، ولا الحصاة أن تتصور لؤلؤة ، يوسف أعرض عن هذا ، واستغفرى لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين » . . . كما أنه في شعره يعان أنه لا يجد النسك فيبغيه ، ويقول :

والنسك ، لانسك موجود فنبغيه فعد عن فقهاء اللفظ مراق

١٢٢ : ٢

وما في عالم الأرض زاهد ، ولا الرهبان أهل الصوامع :

لعدرك ، ما في عالم الأرض زاهد يقينا ، ولا الرهبان أهل الصوامع

٨٢ : ٢

وَيَتَهَم من يظهر الزهد ، فيرى بعض هذا مما سببه ضعف العقول ، وبعضه مما سببه بعد الهمم :

رأيت بنى الدهر في غفلة وليست جهالتهم بالأمم

فنسك أناس لضعف العقول ونسك أناس لبعدهم

٢٨٠ : ٢

(١) في طبعة أ. هندية ، التي تذكر صحفها هنا ، وردت الفقرة هكذا « وما علمنا أن النسك موفيا » وهو خطأ ظاهر ولا يفتق مع حرف السجع ، فإما أن يكون « هذا النسك » بدل « أن النسك » ، وإما أن تزداد كان بعد النسك

وهذا هو زهد أولئك الذين طمعوا وعملوا فخذلوا ، وعز عليهم الحرمان ،
فتركوا الدنيا ترفعا ؛ وهو يشير بهذا إلى معنى نفسى دقيق ؛ وقد يكون هذا
النسك لبعد الهمم هو ما عناه بقوله :

دنياك دار قد اصطالحنا فيها على قلة الديانة
كانها قينة خلوب ما عرفت قط بالصيانة
من لم ينلها أراك زهدا ومن لم يعير يصليانه (١)

٢٩٥ : ٢

ومثله :

خوى دن شرب ، فاستجابوا إلى التقي فعيستمو نحو الطواف خوادی

٢٢٤ : ١

والمعرى يحمل عصا النسك كما أسلفنا ، ويراها أحمر من رشح عامر ،
وأشرف من قوس حاجب ، لكنه هو الذى يرى أن العلا حظ الاقوياء :
وقد علمت وغيرى عن مشاهدة أن العلا إلف قوم فى الوغى ليس (٢)

٣٧ : ٢

وأنه فاز الجسور ، وخاب من لم يجسر :

والعيش جسر نال من هو جاسر أو كاد فيه ، وخاب من لم يجسر

٣٣١ : ١

ولا ينال العلا ، إلا بأطراف القنا وكعوبه ، وضرب الهوادی بالحديد

المسسم ، وما هو من ذلك بسبيل :

زعمت المطايا للوجيف ولم تكن تنال المعالى بالمطى المزمم

ولكن بأطراف القنا وكعوبه وضرب الهوادی بالحديد المسسم

وجذب رداء ، يدرج النمل فوقه لتعميم رأس الهيرزى المعمم (٣)

٢٥٣ : ٢

(١) واحدة الصليان وهو نبات ، (٢) الليس جمع ليس ، وهو الشجاع ، (٣) الهيرزى الجميل

ومن يكتحل بالسهد في طاب العلا ، فإئز أن يرى منهاجها :
ومن يكتحل بالسهد في طاب العلا يجوز أن يرى منهاجها باكتحاله
١٨٧ : ٢

وعنده أن السؤدد للشجاع والخطيب ، حتى في الطير :
ومتى رزقت شجاعة وبلاغة أوطنت من ربع العلي بمشيد
فالطير سؤددها الرفيع وعزها - قسما على خطبائها والعصيد
٢٣٥ - ١

وإن ير النسك لا يكون إلا عن صحة ، واقتدار ، نسك شارخ ، لا من
فات الاربعين ؛ فلكم أكي الشيخ شبابه أسفا في حسرة ، وحن إليه في لوعة ، كقوله :

ظمنت إلى ماء الشباب ، ولم يزل يغور على طول المدى ويغيض
تراه مع الاخوان ، لا تستطيعه حبيب ، متى يبعد فأنت بغيض
٥٩ : ٢

إذا ما خبت نار الشبيبة ، ستأني ولو نص لي بين النجوم خباء
٢٩ : ١

إلى كثير من ذلك قوى ؛ وهو الحاض على اغتنام الشباب :
إن الشبيبة نار ، إن أردت بها أمرا ، فبادره ، إن الدهر مطفئها
٣٦ : ١

بل هو الحاض على الأناية وإيثار النفس على غيرها :
إن ترد أن تحصر حرا من النا سن بخير ، فخص نفسك قبله

١٨٠ - ٢

وإذا لم يكن لشيء عنده قيمة ، وقد هون من شأن المال ، وسوى الفقر
بالغنى ، أو فضله ، ورأى الفقير أقلهما ، فهو هو الذي قال : « نعم الشيء الثراء
لمن كسى العارى ، وأطعم السغبان - ف ٢٨٢ - .. وهو الذي يرى العز في الثروة

والعيش في الحبرة

والعز في الثروة والعيش في الحبرة ، والحرمة في المحبرة

٣١١ - ١

وهو القائل ، إن كل قلب جبل على حب الغنى :

تبغى الثراء فتعطاه وتحرمه وكل قلب على حب الغنى جبلا
لو أن عشقك للدنيا له شبح أبديته لمألت السهل والجبلا
١٦٩ : ٢

والمال عنده خدن النفس ، والفقر موت :

والمال خدن النفس غير مدافع والفقر موت جاء بالإهمال
أو ماترى حكم النجوم مصورا بيت الحياة يليه بيت المال
٢٠٥ : ٢

والفقر موت يرجى النشور منه بالمال :

والفقر موت ، غير أن حليفه يرجى له يتمول إنشار
٢٦٦ : ١

والناس يحترمون الغنى ، ويعيبون الفقير :

أجلوا مكثرا ، وتنصفوه وعابوا من أقل وأنبوه
٣٤١ : ٢

يخدمون الغنى لا الفقير :

من يغن يخدمه قوم على طمع ولا يرون لمن أخطأ الغنى خدما
٢٤٨ : ٢

أبى الغنى بنو حواء من طمع ولو دعاهم فقير ما أجابوه
٣٣٨ : ٢

والمعري نفسه يألم للزوم الفقر له ، كأنه دعوة ناسك استجيبت :

وأن أخاصك دعا لك بالذى ملكت ، بضد من غناك دعا لى

ويعد نفسه صعلوكا ، إذ خرج من الدنيا بغير مال :

بلا مال عن الدنيا رحيلي وصعلوكا خرجت بغير مال

١٩٧ : ٢

وإن هتف المعري هتفة المسيح ، بمحبي التخاص من أذى الحياة، أن يحطوا
أثقالهم ويتبعوه ، فهو يصارح بأن الحياة قائمة على السكد :

ولا بد في دنياك من نصب لها وهل وضع الأثقال دهرك عن شفر
أليس هزبر الغاب وهو يملك على الوحش ، يبغى الصيد بالناب والظفر

٣٠ : ١

وأهاب بالناس أن يعملوا للحياة عمل الباقين ؛ وكاد ينظم الحديث أو الاثر
المعروف بنصه : « إعمل لدنياك ... الخ ، فقال :

اعمل لأخراك ، شروى من يموت غدا وأدأب لدنياك ، فعل الغابر الباقي

١٢١ : ٢

وإن أدين الناس من يسعى ويحترف ، لا يروم الرزق بالتوكل :

تقوى ، فيهدى إليك الزاد عن عرض وتقترى الأرض جوالا فتقترف
تروم رزقا بأن سموك متكلا وأدين الناس من يسعى ويحترف

٨٩ : ٢

وحينما أعجبه الترهيب عقب على ذلك بأن السعي الحلال أطيب من الترهيب :

ويعجبني دأب الذين ترهبوا سوى أكلهم كد النفوس الشحائح
وأطيب منهم مطعما في حياته سعاة حلال بين غاد ورائح
فما حبس النفس المسيح تغيدا ولمكن مشى في الأرض ، مشية سائح

١٨٥ : ١

والرزق يهتف بالناس : أن اعملوا وكلوا ، وبالظنى رد ؛ وبالطائر التقط :

فالرزق يهتف ، يا أنس اعملوا وكلوا يا أيها الظبي رد ، يا طائر التقط

٢ : ٦٧

والمعري يدعو إلى عدم الأنفة من الاحتراف والتكسب :

لا تأنفن من احترافك ، طالبا حلا ، وعند مكاسب الفجار

١ : ٣٢٤

وهو يأمر بالجد ، قائلا : من سهر في الليالي السود ، فأحر به أن يسود ،

والله مالك السائد والمُسودين - ف ٢٣٧ -

وأبو العلاء الذي يدين بالخط ، ويكثر جد الإكثار من ذكر سلطانه

الجائر ، يذكر أن الخط كامن في العمل :

ونال بنوها ما حبتهم جدودهم على أن جد المرء في الجد كامن

٢ : ٢٨١

ولئن حول المعري بخلا بته اللفظية واشتقاقه المديعي ، أسماء المعادن والجواهر إلى

آلام وخسائر ، فإنه هو الذي وصف الذهب فقال في الغفران - ٢٠٣ و ٢٠٤ -

«لله در الذهب من خليل ، فإنه يفى بظل ظليل ، وأن دفن لم يبال . ما هو كغيره

بال ، أعطى نفيس المقدار ، فما هم شرفه بانحدار . والدر إذا كسر ذهبته قيمته

ولم يحفظ أن تتحطم كريمته ، ورب ذهب في سوار ، غير زمانا غير متوار ،

ثم جعل في خلخال ، تختال بلبسه ذات الخال ، ثم نقل إلى جام أو كاس ، وهو

بحسنه كاس ، ما تغير لبشار النيران ، ولا غدر بو في الجيران » الخ ما قال

وهو الذي يفرح لصاحبه بالدنانير في الغفران - ١٩٥ - ويقول : «سرتني فيئة

الدنانير إليه ، فتلك أعوان ، تشببه منها الألوان ، ولها على الناس حقوق ، تبر

أن خيف عقوق ..»

كما يقول في وصف الدينار الذهبي ، من الفصول والغايات - ٢٨٨ و ٢٨٩ -

«... اعتمد على ذي وجهين ما عرف قط بالمين ، او كان رجلا ، لكان ناصح الجيب
قلبا خشي منه العيب ... ومضى بعث في المآرب تضاهها ، والله بادفقه أمضاها .
له منزل ما دخله المم ، ولا سكنه الحال ولا للمم ... تلقاه معلما بالتوحيد وليس
بالعالم ولا البليد ، ولكن الله أنطق بعظمته كل جماد »

» »

ولئن هون أبو العلاء من أمر الملك وكرمه ، ونهى عن ولاية الشؤون
العامة ، فلقد تمنى أن يكون الله قد صاغه مائكا ، أو مائكا مؤيد المن ، يريق ما يشاء
من دم هدرا :

لو شاء ربى لصاغنى مائكا أو مائكا ليس يعجز القدر
أيدمنى وقال : أى دم أرقى فهو الجبار والهدر

٢٨٢- ١

وهو هو الذى يريد عليا المراتب :

أريد عليا المراتب ضلة وخرط قتاد الليل دون عليان

٣٠٧ : ٢

وهو الذى طلب العز ، ووالى المطايا التى تسعفه عليه :

متى ما تبنت خوص المطايا مواليا بنا فى ابتغاء العز ففى موال

١٨٩ : ٢

ورهن المحابس ، قد أغرم بالفروسية غراما ، إذ يرى العز فى رمح وترس ،

أظمر منه فى قلم ودرج ، وحلفاه قتب وسرج :

وإن العز فى رمح وترس لأظمر منه فى قلم ودرج

فدع إلفيك من عرب وعجم إلى خافيك من فرس وسرج

سراجك فى الدجنة عين ضار وإلا فالكوأكب خير سرج

١٧١ : ١

ويؤثر الموت بضربة يوم حرب على الموت في الفراش :
لضربة قارس ، في يوم حرب تطير الروح منك مع الفراش
أخف عليك من سقم طويل وموت بعد ذاك على الفراش
٥٢:٢

ويؤسفه أن يخرج من الدنيا ، لا يبيكه مهتد ولا جواد :
وإنك لا باك عليك مهتد ولا مظهر حزنا ، جواد معهم
٢٣١ : ٢
وهو مع ذلك كله صاحب الكتاب المفرد في الخيل عنوانه ، خطب الخيل
تكلم فيه على أسنتها (١)

وان يحذر الشيخ ، من لصوص الأمانى ، فهو الذى تدب عقارب المنى
على لسانه :

عقارب قاتلة من منى على لسانى وضميرى دبين
٢١٠ : ٢
وله أمل فرقانه محكم :

لى أمل فرقانه محكم أقرؤه غضا كما أنزلا
١٧٧ : ٢

وخاتته الأمانى مرارا ، ثم مازال يتعلل :
وخاتتى الدنيا مرارا ، وإنما يجهز بالذم الغوانى الخوائن
أعمل بالآمال قلبا مضللا كأنى لم أشعر بأنى حائن

٢٨٠ : ٢

وهو يوى أنه لو قيل : لم يبق من العمر إلا ساعة ، لأملى ما تعجز عنه سنة

والأهل المبسوط ، قرن إذا . الليث لا يترك أن يلسنه
لو قيل لم يبق سوى ساعة أملت ما تعجز عنه سنه
٣٠٢ : ٢

وهو الذي اتسمت آماله حتى لم يف بها العمر ، وقد طال عمره :
حاجي ، نظيم جمان ، والحياة معي سلك قصير فيأتي لجمعها القصر
أما المراد فجم لا يحيط به شرح ، ولكن عمر المرء مختصر
٢٠٠ : ١

وإن حض أبو العلاء على أعمال النسيك ، فلقد حض على التمتع :
ألا فانعموا واحذروا في الحياة مليا يسمى مزيل النعم
٢٧٩ : ٢
وهو القائل نثرا : واستقامة العالم لا تكون ولذة الدنيا منقطعة - ف ٣٥٨ -
وهو الذي قرر أن النفوس تنافر الجد ، وتهوى اللهو :
وديدن الجد ، مملوك تنافره كل النفوس ، وتهوى اللهو والدنيا
٢٩٠ : ٢

وهو الذي يرى أن الفتى ، حين يكره الغواني ، ويتقى المرض ، ويحتمى من
الطعام ، يكون قد طوى الحياة ، وكاذب من يقول : انه منعم :
وإذا الفتى كره الغواني ، واتقى مرضا يعود وضره ما يطعم
فقد انطوت عنه الحياة ، وكاذب من قال عنه يبيت وهو منعم
٢٣٦ : ٢

وهو المدافع عن إصابة اللذات ، إذ يقول في الغفران - ١٩٣ - وأما ما ذكره
من ميله في مصر ، إلى بعض اللذات ، فهو يعرف الحديث ، أريحوا القلوب
تعد الذاكرة ، وقال أجيحة بن الجلاح
صحوت عن الصبا ، واللهو غول ونفس المرء آونة ملول

وإذا كان أبو العلاء قد وصف نفسه هو نفسه ، فكذلك مع ذلك من أسف
على الدنيا ، منه ما في الفصول ٣٦٦ - لا أكتفك ما أنت به عليم ، إن أسفى
لطويل ، نفذ عمرى ، وغيرى المصيب ، - ولأنه ليعلن غير مرقم - أن نفسه
تنازعه الى الشهوات :

تنازعى إلى الشهوات نفسى فلا أنا منجى أبدا ولاهى
٣٥٦ : ٢

ويبدى إعجابه بالخفض والصحة :

أريد ليلان العيش فى دار شقوة وتأتى الليالى غير بخل وليان (١)
٣٥٧ : ٢

وهو يؤثر العافية ، وسلامة جسمه . ويعتبر السن خيرا من درة ، ويوصى
بالمحافظة عليها :

سنة خير لك من درة زهراء تغشى أعين الناظرين
هجت للضارب فى غمرة لم يطع الناهين ولا الأمرين
يكسر باللؤلؤ من جهله خشبا عتت عن أنامل الكاسرين
٣٥٨ : ٢

وهو يحذر بان النفس لا تزال ذليلة لحب طعام ، وحب شراب ، ويخرج هذه النفس :
تميلين عن نهج اليقين كأنما سرى بك أعمى أو عراك تعامى
فبعدا لتفس لا تزال ذليلة لحب شراب أو لحب طعام
٣٥٩ : ٢

وهو يقرر أنه جاهد لتحسين حاله فى الحياة ، أو إحسان ذكره فيها :
قد ركب الوجناء فى جوشن الخندس أكرى فى رحلها وهى تكر

راجيا حسن حالة إن تخطتني ، فاعمالها ليحسن ذكر

٢٨٠ - ١

فهو كما يقول : قد قطع الحزن إلى السهل ابتغاء اليسار :

قطعنا إلى السهل الحزونة نبتغي يسارا ، فلم نلف اليسير ولا السهلا

١٦٨ - ٢

ونبل فلم يصب ، فمن له بالسأم الصائبات :

حاني كثير ، وما نبلي بصائبة وكيف لي في مراميهن بالحاي

١٠٥ - ١

وأرسل دلوه يبغي الماء فخاناه الرشاء :

أرسلت غربك تبغي الماء مجتهدا وما على الغرب لما خانك المرئس

٢٠ - ٢

وبعد هذا الفشل والعجز مازال آملا راغبا . يقول : « أحب الدنيا ، وأتتها

ليست في ، وقد ينست من بلوغها واليأس مريح ، فالأم التشوف إلى الضلال »

لو كنت مؤديا - كامل الأداة - لها ، لثقل على أمرها - ف ٣٥٨ -

كما يقول :

ولي أمل قد شبت وهو مصاحبي وساودني (١) قبل السواد وماهما

٢٤٠ : ٢

وما أصرحه بعد ذلك . حين يفسر ما يمكن أن يكون منه زهدا ، ويبين سببه

النفسي في شجاعة ، فيقول : إنه لا يؤثر خمود مصباحه ولكن خاذه الزيت :

ولم أوتر لمصباحي خمودا ولكن خان موقده السليط

٩٣ - ٢

وأنه لم يطلق الدنيا بل هي التي طلقته :

فما طلقت هي ، بل طلقت ولست بأول من طلقا

١١٧ - ٢

« ١ » ساودني لازم سوادى أى شخصى ، أو غالبنى

وما أعرض عن الذات ، إلا لأن أطايبها قد مالت عنه
ولم أعرض عن اللذات إلا لأن خيارها عني خنسته

٢٩٩: ٢

ويكمل التفسير حين يقول : ان الناس أرخصوه ، فأغلى قدره بالصبر :
لما رأيت سجايا العصر ترخصني رددت قدرى إلى صبرى فأغلابنى

١٠٥: ١

ولعل هذا من النسك، الذى ذكر هو قريبا، أنه نسك لبعده لهمم . وهو فى
الحقيقة متشه راغب يريهم رياء وفى القواد أوار :

إني أرى خلتي فأريهموا رياء وفى سر القواد أوار

٢٧١: ١

هذا زهد أبى العلاء بعامة ... وأما

تحريم الحيوان وثماره

فان يكى قد قرر ألانسك للأسد مع خوف الوحش والنعم من فرسه، فهو
يقدر الواقع الطبيعى قدره ويقول : إنه لم تخلق للأسد أظفار إلا ابتغاء الظفر
وما جعلت لاسود العرين اظفاير الا ابتغاء الظفر

٣٥٧ - ١

ولولم يقدر خالق الليث فرسه لمطعمه لم يعطه الناب والظفرا

٢٨٦: ١

وهو بدافع عن افتراس الاسد بأنه على هذا جبل، وصير قوته بما يدى :

وما ذنب الضراغم حين صيغت وصير قوتها بما تدى

فقد جبلت على فرس وخرس كما جبل الوقود على التنى

٢٦٤: ٢

وفي الفصول - ٤١٠ - يقول عن الذئب والله جعل رزقه في البضيع فعلام
يقتل إذا افترس قريرا منزربا (١)
ويقول في شعره :

ولولا حاجة في للذئب تدعو لصيد الوحش ما قنص الغزال

١١٨: ١

وشيخنا المشفق على حيوان الارض هو الذي يخاف ويخوف من الحيوان
وخف حيوان هذى الارض واحذر مجيء النطح من روق وجم

٢٦٤: ٢

ويشبه الناس بضاري الحيوان ، ويرى أن الشر قد تفرق في حيوان الأرض :
والشر في حيوان الارض مفترق والإنس كالوحش من ضار ومنتقل

١٩١ - ٢

ولئن كان يحزى الحيوان عن هذا الشر إحسانا فيكره ذبحه ويحرم على نفسه
لبنه فإنه لينسى ذلك فيذكر إيثاره اللبن على اللحم :

اعرض عن الثور مصبوغا أطايبه بالزعفران إلى ثور من الاقط

٦٧ - ٢

ويفضل اللبن على الخمر ، ليغري الناس بالاستعاضة عن الخمر :
أفضل من حمر السلاف ومن كميتهما ناصع من اللبن

٣٢٢ - ٢

كما أنه وقد بلغت به الرقة أن طلب اتخاذ حذائه من الخشب لا من الجلد
حتى لا يذبح الحيوان ، قد نسي ذلك ، وأعلن أنه يشرب الماء في الجلد :
شربت بالمسجد عن عزة ومشربي من خزف أو آدم

٧٧ - ٢

(١) البضيع اللحم . والفريز ولد الضأنه . والمنزرب الذي دخل الزوب وهو حظيرة البهم

وأكثر من ذلك كله أن أبا العلاء وقد دفعت رقة القلب، إلى تحريم الذبح
فمكره السيوف والسكاكين والمدي، بل كره الحديد يتخذ منه المروء لسهر
الجرح، فمنه عنه، هو أبو العلاء الذي يمجّد السيوف، ويتعشقه، ويحبذ القوة تحيذا
بضعه في صف الشعراء الفرسان - ان شئت - وقد أسلفنا قريبا بعض الشيء عن حبه
الفروسية، وهو يشيد بالسيوف في نثره فيقول في الفصول - ٢٩٧ و ٢٩٨ - وصفا للسيوف:
يها به الفتى والكهل. وهو لأن يهاب أهل. يستنصر به أرباب العقول، وليس بصاحب
معقول. وفي شعره يعد السيوف الشر المنافع كل حين:

وجدت الشر ينفع كل حين ومن نفع به حمل الحسام

٢٣٢:٢

والسيوف أبلغ واعظ يتكلم:

كلم بسيوفك قوما إن دعوتهمو من السكوم فما يصغون للكلم
ذو النون، ان كان سيف الهند، أبلغ من ذي النون في الوعظ بل من نون والقلم

٢٦١:٢

وبالسيوف، اظا الأذى:

وكم من حسام قد أميط به الأذى ومارن سمر فيه رغم لما رن

٣٠٩:٢

وبالسيوف تنال المني:

مني، صل حرب نالها بالمناصل فواصل وقاطع بالرقاق الفواصل

١٨٦:٢

وأبو العلاء رام المآرب سفها ولم تكن تنال إلا بالسيوف:

رمن المآرب بالسفاه ولم تكن لتنال إلا بانتضاء سفار

٣٤١:١

وفي بيض السيوف بياض عيش، هكذا قال الحكيم:

فوارس جيلكم تعطى منهاها اذا دمي نواجزها الشكيم
وفي بيض السيوف بياض عيش بذلك فاعلموا، نطق الحكيم

٣٣٣:٢

والسيف أصل المكرمات:

فيا هند، وان عن المكرمات ت من لا يساور بالهندواني

٣٢٨:٢

وهذا الرقيق القلب، يصنف وقع السيف، ويراه إنما يفرج المضيق بوقوعه في
المضيق:

والسيف لا يفرج المضايق، أو يوقعه في المضيق من صقله

١٧٨-٢

والعجب أن أبا العلاء صاحب الكلمات في الأديان والعقائد يرى أن السيف هو
الذي يثيب الملاحدة إلى الرشد:

تمادوا في العتاب، ولم يتوبوا ولو سمعوا صليل السيف تابوا

٧٠:١

وهذا المتفلسف المفكر، يأمر بقتال الملحدين:

إذا ما أحدث أمم بجمل فقا بلها بتوحيد السيوف

٩٩:٢

ولو أخذهم السيوف ما ألدوا، وإنما الإلحاد إلحاد السيوف عن أن يأخذهم:
رويدك، لو لم يلحد السيوف لم تكن لتحمل هام الملحدين هواد

٢٢٤:١

وفسدت الشام في عهده كذلك بسبب إلحاد السيوف في رأيه:

إذا دنوت بشأم أو مررت به فتبكيه وراء الظهر أوحيدى

قد غير الدهر منه بعد مبتهج وألحد السيف فيه بعد توحيد

٢٣١-١

ورابه من السيف هذا الألحاد، وأنه لم يفجع الملحدين برء وسهم منذ أزمان:
هل ألحد السيف أو قلت ديانتته أو كان صاحب توحيد، وإيمان
ورابني منه ترك الجاحدين سدى لم يفجعوا برءوس منذ أزمان

٣١٦:٢

وإذا ذكر القتل والقتال في الحديث عن ناسك: المتحوب من الجرح
والدم، المبتغى نعلا من خشب لثلا يسلخ الجلد، فاسمعه إذ يقرر ان العيش نهاب
ويأمر بالمناهية:

تناهيت العيش النفوس بغرة فان كنت تستطيع النهاب فناهب

١٠٠-١

ويرد المطاعين وهم المطاعون:

رب الجواد قرى عينا لما كله فعد من رهط أقوام فراعينا
قل للمطاعيم تعصبهم ضيوفهم وان المطاعين يمسون المطاعينا

٣٩٣:٢

وفارسنا الحبس لا يكفيه أن يؤثر الموت في الحرب على الموت في الفرش
بل هو يعد ميتة الميدان سعادة (١):
من السعد في دنياك أن يهلك الفتى بهيجاء، يغشى أهلها الطعن والضربا
فإن قبيحا بالمسود ضجعة على فرشته يشكو الى البقر الكربا

٨٠: ١

وإذا كان له من الشعر ما يعد به بين الشعراء الفرسان حيناً فأن له من

١ — يلاحظ انه يقول في الفصول ٢٩٥ — أحسن ميتة الرجل أن يظهر به العلة ويستحضر له الطبيب
فيمارس له الادوية وعند الله دواء السقيم ثم يقدم الناس فيخضره نقر منهم. العدو الصديق ثم يلفظ نفسه
فيكون كالخدع القليل المقطوع الخ

تحييد القوة ما يجعله بين المعدودين من انصارها ، وهو الموصوف بالبرهمة ،
والقول بعدم إفساد الصورة ، وبتحريم ذبح الحيوان . فاستمع لقوله في
تمجيد القوة :

ما أوصل السيف قطاعا لحامله وأبلغ الذابل الموصوف بالخطل
قد وافياك بتاج الملك ، عن عرض واثرياك بحلي الكاعب العطل
وأحرزك بمقدار الى أمد وأنجزاك وعد الكذب المطل
والسيف إن قال أبدى نبأه عجبا في وزن حرفين ، لم يكثروا ولم يطل
سلمان تقهم عنه فارسيته فدع سليمان والمعنى ردى البطل

١٩١ : ٢

ويذكر التمتع عن عظام لا تبلغ بالوناء فيعد هذه العظام في إطالة وحاس :
ويكفيك التمتع من قريب عظام ليس تبلغ بالتونى
صرير الرمح في زرد منيع ووقع المشرفى على المجن
وحمل مهند بسطو بعير وقور ، ليس بالاشر المرن
ولاشلال عانات خماض ولكن خيل جيش مرجح
يرى عزم الأوابد غير حل ويعزم هامة البطل الرفن (١)
وما ينفك احتملا ذبابا إلى التغريد في الخصر المعن
تذوب حذاره زرق الاعادى ويسخى بالحياة حليف ضن
وينفك في فم الحيات سماً ويملاً ذلة أنف المصن (٢)

٣١٨ : ٢

وهو ينفر من التغاضى على التثريب ويحتكم إلى القوة :

وخير للفؤاد من التغاضى على التثريب فصل يثربى

(١) العدم العض والاكل بجفاء ، والرفن المتبختر في بطر

(٢) المصن المتلىء غضباً

فإن يلحق بك البكرى غدرا فلم يتعر منه التغلبي

٣٦١:٢

ويحبد نفع السيف وحده :

ما أنفع السيف لمن شامه أخضر ماروضته زاوية
ذبابه ، أن يشد يحدث له * جديوازي لعب الغاوية (١)
يقتسر الدنيا لأخلاقه محتلباً أخلاقها الضاوية
ألوى بنات الارض وهو الذي لم يلو بل ألوت به اللاوية

٣٦٥:٢

والمعري في إعجابه العنيف المسرف بالقوة قد قامر بحياته في سبيل هذا

وقال : —

وإن أنا قلت لا تحمل جرازاً فمز أخا السفاسق واضربني
فنصل السيف وهو اللج يرمي غريقاً فوق سيف مرفثن (٢)
وضاحيه يزيل غضون وجه ويبسط من وداد المكبتن (٣)
فما حملت يداه به خثونا ولا نبراته نبرات ون (٤)

٣٩٩:٢

فياليت شعر أبي العلاء أكان هذا آخر ما قال . فهو عنده القول الفصل
في الشهادة للقوة والسيف أم تراه عادف نقض ذلك وبه استحق بالنهي عن حمل السيف
أن يهز أخو السفاسق ليضرب به ؟؟ ما أحسبه إلا قد خسر في هذا التحدى
حياته إذ طالما قال لا تحمل سيفاً ولا تمسه ، وما خال تلك النعمة القوية
هي آخر ثغياته.

(١) الغاوية هنا الذي يألف الرياض من الذباب (٢) المرفثن — الساكن
(٣) المكبتن — المنقبض (٤) ألون — آلة للهو

وفي كل حال فهذا التحدى الثائر . المسرف في الدعوة الى السيف، صادر
من ذلك الذى حرم الحيوان شطرا من عمره، واحتج لذلك مجادلا في الرسائل
المتبادلة بينه وبين أحد أبناء عصره: هبة الله بن موسى بن ابي عمر ان، داعى الدعاة
بمصر، فكانت حجته في شعره هي حجته في نثره: متدافعة متقابلة
فقد احتج في شعره لما رأى من تحريم الحيوان - بما اسلفنا - من امر
صحته ونظام طعامه وقال :

أفدت لهجران المطاعم صحة فمالي من داء يخاف ولا حبن^(١)
٣٢٤:٢

ولعله لهذا قد تمنى ترك الاكل جميعا فقال :
من لي بترك الطعام أجمع ان الاكل ساق الورى الى الغبن

٣٢٤:٢

كان هذا التحريم الصحى حجته ، ثم هو في غير هذين الموضوعين يذكر تحريم
الحيوان وشفقته عليه على نحو ما قدمنا... وكذلك نراه في حجاجه النثرى عن
هذا التحريم وهي المسألة التى كانت مدار مراسلاته مع داعى الدعاة فهم وتارة .
يظن اقتناعه بالنبات يثبت له جميل العاقبة وحينما يقول ان اللحوم لا توصل اليها
إلا بايلا م حيوان ويتحدث عن هذا الالم وحس الحيوان به وآونة يقول
ان الذى حثه على ترك أكل الحيوان قلة ماله

فهل ابو العلاء الذى سمعت منه ما سمعت هو أرفق الناس بالحيوان وارحمهم به
وله في ترك أكله فكرة تعبر عن مذهب فلسفى !! .. سنرى .. وأما

كراهته الحياة

فليس أبو العلاء فيها أثبت رأيا ، فهذا البرم بالحياة الذي يرى البقاء
شقاء يقول ناثرأ في الفصول - ٤٤ - :

أنا تحت حب الدنيا محب - بارك - ، أثقاني فأنا مكب ، كما يقول - ٣٤٨ -
أزويت عني الدنيا فأسفت ؛ وأشفقت لذلك وخفت ، وأحببت لها وشفت
- أبغضت - ، ولو أنصفت لعفت ما استوبله ، فما نشفت - أصبت - ، .. إلى غير
ذلك ، والذي يعد البقاء طول شقاء يقول : الموت ربذ - سريع - فأين أنتبذ ،
ليس منه وزر ولا حام - ف ٢٤٢

والذي عد حب الدنيا غرورا . وأسا لامامة الجمل وو .. الخ هو الذي
عد حبها طبعاً ، قد منى منه بقرن غلاب :
وحب دنياك طبع في المقيم بها فقد منيت بقرن منه غلاب

١٠٥:١

وحبها غريزة فينا فلا يترك ولو جر المهالك :

ولو لم يكن فينا هواها غريزة . لكان إذا جر المهالك يترك

١٢٦ - ٢

وحبها كحب ليلي ولبنى ، وكل ابن ملوح ، وابن ذريح :

أما وفؤاد بالغرام قريح ودمع ، بأنواع الهموم سريح
لقد غرت الدنيا بنيتها بمذقها وان سمحوا من ودها بصريح
أليلى ؟ وكل أصبح ابن ملوح ولبنى ، وما فينا سوى ابن ذريح

١٨٥ - ١

(١) معجم الأدباء لياقوت ١ : ٢٠٠ والازمعيات ٢ : ٣٢٤ - (٢) المرجع السابق
(٣) المرجع نفسه (٤) ياقوت ١ : ١٠٢ (٥) عبارة ذكرى أبي العلاء للدكتور طه حسين بك

وكلنا دنف بحبها فوق مايجب :

نحن البرية ، أمسى كلنا دنفا بحب دنياه ، حبا فوق مايجب

١٦٠ - ١

وهي المنتهى ، وهي المشتى ، ومع السها منها أمانى :

أبى القلب ، الا أم دفر كما أبى سوى أم عمرو ، موجد القلب هائم

هي المنتهى ، والمشتى ، ومع السها أمانى منها ، دونهن العظام

٢٢٥ - ٢

وكان عشقها وصية المهيمن :

كان المهيمن أوصى النفوس بعشق الحياة وأحبابها

١١٩ - ١

والنفس تدمع عند فراق الدنيا ، إذ ليست خلة أعز منها :

والنفس آلفة الحياة ، فدمعها يجرى لذكر فراقها منهله

ما خلة بأعز منها ، والفتى يبكى إذا ركب الصريمة خله

١٦٠ - ٢

حتى الراهب المسجون لفرط العبادة مدله بحبها :

الراهب المسجون ، فرط عبادة من حب دنياه الكذوب مدله

أعرفتمو أصحابكم بحقيقة أم كلم عنهم غي أبله

٣٤٤ - ٢

معشوقة مشقية ، والعشق أبدا شقاء :

ودنيانا التي عشقت ، وأشقت كذلك العشق ، معروف ، شقاء

سألناها البقاء على أذاها فقالت عنكمو حظر البقاء

٣٨ - ١

ولا ينسى أبو العلاء أن يكذب المتحدثين بكرهها ، بعد ما يقرر تولده

بها ، وعدم استطاعة نسيانها ، حتى حين يقول غير ذلك :

نفسى بها ، ونفوس القوم ملهجة ونحن نخبر أنا لا نباليها
أمرتى بسلو ، عن خوادعها فانظر، هل أنت مع السالين ساليها
ولا ترى الدهر إلا من يهيم بها طبعها ، ولكنه باللفظ قاليها

٢ - ٣٤٦ ، ٤٧

ولن يخرج هو من الدهر ومن فيه !!

* * *

وأبو العلاء يحدثنا بأصرح من ذلك . عن حبه هو لها خاصة ، بعد ما قرر
من تأصل ذلك في الناس ، وغريزته ، فيقول :

أحبك أيها الدنيا كغيري وأشراني قلاك ، ولست أشرى
ونهوى العيش فيك مع الرزايا وما طولت من خمس وعشر

١ - ٣٢٣ ، ٢٤

ورغم خداعها ، قد أشرب حبها لا ينفيه عن جسده إلا الثرى يتشربه :

دنياى ، لا كنت ، من أم مخادعة كم ميسم لك في وجهى وأقراي^(١)
أشربت حبك لا ينفيه عن جسدى

سوى ثرى ، لدماء الأنس شراب

١ - ١٠٦

وأحبها حبا خالصا كحب غيره ، وقد صادته رغم الحذر :

وحبى للدنيا ، كحبك ، خالص وفى عنقينا من هوى ، جعلت ربقا
حذرنا ، فصادتنا الخلوب ، كغيرنا وأى غراب ما أجادت له طبقا ؟!

٢ - ١١٣

وهى ربة دل ، لم يقسل عنها ، وإن ظن التسلى :

أيها الدنيا لحا لك الله ، من ربة دل

ما تسلي خلدي عنك وإن ظن التسلي

٢٠٧-٢

إلى كثير كهذا .

* *

وهذا الذي انتظر أن تفك المنية إيساره ، وأن يعبر الجسر إلى الأخرى ،
وو ... هو الذي يقول « .. قلمتني دنياى فما قليتها ، قد كرهت المنية وأبقتها » .

- ف ٢٢٣ - كما يقول في شعره .

أهاب منيتي ، وأحب سترى وخوف الشيخ من هرم وهتر

٣٢٠-١

ويضاعف همه ، أن يموت قبل تحقق أمنيته .

تضاعف همى إن أتتني منيتي ولم تقض حاجي بالمطايا والرواقص
وما عالمي إن عشت فيه بزائد ولا هو إن ألقيت منه بناقص

٥٧-٢

وهذا الذي سمعناه وقد فكر في الانتحار بالأضراب عن الطعام والشراب ،
هو الذي ذكر الموت ، وألا مهرب له منه ، فقال : ولو شاء الله لجعل عباده مخلصين

- ف ٢٤٢ - بل كاد يتمنى الخلود في قوله :

كم أراد الخلد قوم فرأوا مسلكا إن يلتمس لا يستطع

٨٥-٢

وقال إن طول العيش يحمد على ضد طول القول :

والعيش ضد القول يحمد طوله وينم هاذي القوم في الاكثار

٣٤٢-١

وهو في كل حال قد أكثر من ذكر أنه جاء الحياة كارها ، ويفارقها كارها والله

شاهد على ذلك .

خرجت إلى ذى الدار كرها ، ورحلتى إلى غيرها بالرغم ، والله شاهد

١٩٢-١

جئنا على كره ، ونرحل رُغْبًا ولعلنا ما بين ذلك نجبرُ

٢٦٢-١

وما يترك الانسان دنياه راضيا بعز ؛ ولكن مستغنا ما على قسر

٣٠٤-١

وردت إلى دار المصائب مجبرا وأصبحت فيها ليس يعجبنى النقل

١٤٩-٢

وكل من حل بها يكره الرحلة عنها ، وهى تستوبل

١٦٤-٢

وأبو العلاء يعد أشد خطب يتقى هو فراق الزوج للجسد :

أشد خطب يتقى فراق روح الجسد

٢٣٩-١

أفيلق أبو العلاء بعد ذلك «كاره الحياة» ، ويقال : أن أبا العلاء كان

للدنيا قاليا !!

وأما ...

المراة

فإن يكن المعري ، قد دعا إلى اجتنابها ، فإنه هو الذي يهنيء بالزفاف
فيقول في الزوجة :

خير أيدي الزمان عند بني الد نيا ، أتت في أوان خير الشهور

سقط ١ : ٧١

ويهنيء بالزفاف مرة أخرى فيقول في وصف ساعة الأعراس

لم يزل الليل مقبلا يرى مالا رأت عاد ولا جرهم

في ساعة هشت إلى مثلها مكة ، وارتاحت لها زمزم

سقط ١ : ٢٣٩

وأن تظن أن ذلك من شعره قبل التفلسف ؛ فإنه في اللزوميات ليعد

النعم ، ومن بينها الإعراس بالفتاة ، قد عده نعمة بين المطعم والمشرب
والملبس وسائر ملاذ الحياة :

طاعم أنت ، وارد عذب ماء معرس بالفتاة ، حاذ وكاسي

فاتق الله ، لا تؤمن ما يقبـح من ريبة ، ومن شرب كاس

٢ - ٤٧

ويصف الرجل الممتع في الفصول - ٤٢٩ - فيقول : يكون الرجل كاسيا

بمثل ريش الأخيل، وشبابه كروضة الوسمي، وعيشه أوسع من المومة،
وعرسه الصالحة الحسناء... الخ. كما يصف بعد ذلك الرجل غير الممتع فيقول:
ويلبس أخلاق الثياب كلباس الرأل، ويفارق العرس، أما أن يهلك، وإما
أن تختار سواه، وتكون روضة شبابيه هشيما... الخ - ف ٤٣٠ -
فالعرس الصالحة الحسناء عنده متعة، وفراقها شقوة !!



وهذا الذي جعل النساء أسودا تتقى، هو الذي جعلهن قوارير يرفق بها:
زجاج، إن رفقت به، وإلا رأيت ضروبه متفصيات

١ - ١٥٥

والذي جعل المرأة كالعقرب، هو الذي أجلبها، وعدّها مكان الثريا في
المكارم، ومكان الشمس، إذ يقول:

إذا ما «غضوب» غاضبت كل ريبة وكانت «لميس» لا تقر على اللبس
فقد حازتا فضل الحياة، وعدتا مكان الثريا في المكارم والشمس

٢ - ٣٠

والذي جعلهن أذى وكيدا، وحبل غي وما إلى ذلك، هو الذي يجعلهن

الجنات:

جنان، ورضوان الذي هو مالك لها، عنك ينفي مالكا وجهنا

حلين، وجن الحلي من فرط لهجة فوسوس من تحت الثياب وهيننا

٢ - ٢٤٣

والذي رأى بدء السعادة أن لم تخلق امرأة، جعل الزوجة جنة

هذه الدنيا:

وجنتك الأولى عروسك وافقت رضاك فإن أجنتك فاجن ثمارها

٢٩٠ - ١

٥ وهو الذى جعل المرأة الحصان نعمة يحسد بين القوم زوجها :
إذا كانت لك امرأة حصان فأنت محسد بين الفريق
فإن جمعت إلى الأحصان عقلا فبورك مشر الغصن الوريق

١٢٣ - ٢

والذى قبح الزواج والزوجة ، ونهى عن الزواج . هو الذى رأى أن
النساء لا يصونهن سوى أزواجهن أحد :

وما حفظ الخريدة مثل بعل تكون به من المتحرمات
يحوط ذمارها من كل خطب ويمنعها مصاعب مقرمات^(١)

١٥٥ - ١

ما صان كن سوى الأزواج من أحد وأول الدهر أعيتن هماما

٢٤٨ : ٢

٦ وهو الذى يأمر الرجل بأن يطلب لبنته زوجا ، ويخوف ابنه من
الزواج والنسل

واطلب لبنتك زوجا كي يراعيها وخوف ابنك من نسل وتزويج

١٧١ - ١

وهو يناقض نفسه ، لا فى قولين بعيد وقريب ، بل فى شطرى هذا البيت
ويفسد معناهما فإنه لو كلف كل رجل أن يخوف ابنه من الزواج لما وجد

مرجل الابنته زوجا ، كي يراعيها كما طلب هو !!!

على أنه وراء ذلك كله قد عاد فأباح الزواج ، وقال ، تزوج ان أردت

واختار للمتزوج فتاة صدق مسترة كمضمر نعم :

تزوج إن أردت فتاة صدق كمضمر نعم دام على الضمير
إذا اطلع الأوانس لم تطَّلِع إلى عرس تمر ولا أمير

٣٢٥ - ١

وأقر أنها تكون حياطة لزوجها، واعترف بفائدة الزواج، والتعاون
فيه على الحياة، إذ قال :

قد حاطت الزوج حرة سألت مملكتها العون في حياطتها
غدت بئرس إلى مرادها أو خيط غزل إلى خياطتها
أماطت السوء عن ضمائرهما فلاقت الخير في أماطتها

١٥٧ - ١

وأبو العلاء لم يذس الخيرات من النساء، ولم ييأس من خيرهن ..
لقد وصف هؤلاء الخيرات، الغازلات غير العازقات ولا المغنيات ولا
شاربات الخمر، ولم تخل الدنيا في رأيه منهن وهو يحبهن ويحيى رجالهن
الذين يمضى عمرهم في الجد فيقول :

رعى الله قوما، مضى دهرهم وما فيهمو أحد يهزل
تضاهى العناكب نسوانهم فتنسج للنفع أو تغزل
وما عرفت مزهرا في الحيا ة ولا الدن يفتح أو يهزل
جهلن الغناء وصوتا يقا ل غناه دحمان أو زلزل

١٧٦ : ٢

وهو يدعو الله بالمغفرة لهؤلاء النساء. المجاهدات العاملات ويقول :

والله يغفر في الحساب للنسوة جاهدن إذ فقد الحيا بمغازل

فكسبن منها مايقوم بأنفس والصبر يبدن في الزمان الهازل
أتصدقت بالخييط، ثم هوت إلى الحمراء فاعتصمت بخيط الغازل
وأناك المسكين أكلة جائع فعدت كرضوى في المقام الآزل^(١)

٢٠٣ : ٢

وأبو العلاء، يقدر للمرأة فضلها الكبير، بوظيفتها الإنسانية الكريمة،
وظيفة الأمومة، التي تسدى بها الفضل لكل مولود، ويرأها أولى بالأكرام
حين يعد فضل الوالدين :

العيش ماض، فأكرم والديك به والام أولى بأكرام واحسان
وحسبها الحل والارضاع تدمنه أمران بالفضل نالا كل أنسان

٣١٤ - ٢

كما يقول :

وأعط أباك النصف حيا وميتا وفضل عليه من كرامتها الأما

٢٤٠ - ٢

وبين فضلها في النسل :

أقلك خفا، إذ أقلتك مثقلا وأرضعت الحولين، واحتملت تما
وألقتك عن جهد، وألقاك لذة وضمت وشممت، مثلما ضم أو شما

٢٤٠ - ٢

وأبو العلاء أمل خير، في المرأة، حين يكتب الكتب الخاصة في ودها،

ككتاب تاج الحرة في عظات النساء نحو أربعمئة كراسة

ولا ندع الحديث عن المرأة، وآراء أبي العلاء فيها قبل أن ننظر في أمره
بزجر الغريزة المسيئة، والكف عن الزواج فإنه ليقول في الغفران ما قدمناه،
من أنه لاسبيل للتغلب على الفطرة، ولا معدى عن الجبلة، ويكمل ذلك بما

نصه : وقول القائل ، اللهم اجعل وصعى - طائر أصغر من العصفور - بازيا ،
يكون للسفه موازيا

لقد علمت ، ولا أنهاك عن خلق ألا يكون أمروا ألا كما خلقا^(١)
وصاحبنا قد أحس سلطان الغريزة على الانسان في أشياء كثيرة ، وله
الكثير الجمل من التشبهى ، لانتوفيه هنا ، ولا يسمح المقام به ، وحسبنا من
ذلك كلمة متحرقة في الفصول - ٣١٦ - إذ يقول : أنما أنا كرجل ، بلى بالصدى
- العطش - لا يجد وردا ولا موردا ، فهو ظمآن أبدا ؛ ان ورد عزوفا - بثر
يؤخذ منها باليد - وجده مضفوفاً - كثر وارده - ، وان صادف نزوعا - بثر
ينتزع منها الماء - أعوزته الآلة والمعين ، فبينما هو كذلك ، هجم على رجل
ينزع بغرب ، فشكا إليه فرط الكرب ، فقال : ريك ان شاء الله قريب ،
فأعنى على انتزاع المُرْوِية ، فلما كان العرب بحيث يريان ، غدرت الودم
- عرى الدلو أو السيور - وخان الحجاج - الحبل يشد على خشب الدلو ، أو
شد من تحته ليقويه -

وحسبنا من قوله عن المرأة قولته المكشوفة ، التي يقرر فيها أن :
أركان دنيانا غرائز أربع جعلت لمن هو فوقنا أركانا
والمرء ليس بزاهد في عادة لكنه يتربص الامكانا

٣٠١ - ١

ولنا إلى هذه المسألة بخاصتها عود قريب ... فشأن أبي العلاء في المسألة
الجنسية يستحق القول المفرد

وفي كل حال ، فما سمعنا من أقوال لأبي العلاء يجعلنا نسأل : أكان رأى
أبي العلاء في المرأة قبيحا ؟ أله في المرأة رأى ثابت يوصف بذلك ؟ !!
فكر أيها القارىء وقدر
هذا ما عنده في المرأة ، وأما ...

النسل

فاسمعه يهنئ. بمولود، فيقول نائراً: قد سرت الجماعة بالمولود القادم،
أجزل الله حظه من اسمه، وأعطاه الغاية مما كنى به... ويشتهد به الفرح حتى
يقول في ختام رسالة هذه التهئة: وكان ينبغي ألا يهنئ به، لأننا شعرات في
في جسده، وحصيات من أرضه، ولكن الجذل غلب فاستفز (١)
وإن لم تعرف متى كانت هذه التهئة بالمولود. أكانت قبل عزله أم بعدها؟
فأنا لنقرأ له تهئة. أخرى بمولود، في قصيدة، يصرح فيها بأنه الآن في صبر
واعتزال (٢)، ومنها يقول في التهئة بالمولود:

هنيئاً، والهناء لنا جميعاً يقينا، لا يظن ولا يخال
بمنتظر، مراقبة السوارى يمش لبرقها عصب نهال
ويرجو للمهنأ المزيد من النسل والولد فيقول:
أهل، فبشر الأهلين منه محيا في أسرته الجمال
بأخوته الذين همو أسود على آثار مقدمه عجال
ويصف كثرة الولد وأثرها فيقول:

وهل يشق الفتى بناء وفر إذا لم تتل أينقه فصال
هذا قول الذي رأى أن الحزم عدم النسل، بل رآه ذنباً لا اقالة منه...
والذي رأى النسل فرش هموم الفتى، وأذى للوالدين؛ هو القائل من القصيدة
السابقة في التهئة، مخاطباً أبا الوليد:

(١) رسائل المعرى ط اكسفورد ص ١١٣

(٢) سقط الزند ٢ : ١٨٠ .. وليقدر القاري أن من أبيات هذه القصيدة نفسها قوله:

وحالي خير حال كنت يوماً عليها وهي صبر واعتزال

بأن الله قد أعطاك سيفاً عدوك من مخايله يهال

كما يقول :

سترکز حول قبلك العوالى وتكثير فى كنانتك النبال

فإن منأى أن يثرى حصاكم ويقهر عن زهائكم الرمال

وكان هذا الإنسان بالمولود ، دعا للطير العابد لله بسلامة الولد ، فقال : وإن

كنت عابداً لله فأثريشك ، وسلم ولدك - ف ٢٩ -

وهو فى اللزوميات ، يقدر نفع النسل ويقول : إن خير النسل ما نفع :

خير النساء اللواتى لا يلدن لكم فإن ولدن ، فخير النسل ما نفع

٧٩-٢

ويقدر فضل الابن فى حمل العبء عن أبيه ، ويأمر الولد بذلك :

تحمل عن أبيك الثقل يوماً فإن الشيخ قد ضعفت قواه

والذى رأى خير النساء العقيم ، هو الذى بارك النسل من المرأة الحصان

العاقل التى عدها نعمة يحسد عليها زوجها ، إذ قال :

فإن جمعت الى الاحصان عقلاً فبورك مشمر الغصن الوريق

١٢٣-٢

والذى يذكر جنابة الأب على الولد حتى لو عقه الولد لكان قد كافأه

بسوء صنيعه ؛ هو الذى يذكر عطف الوالدين على الولد ، ويندم منه سوء

معاملته لها ؛ ويصيف صنيعهما الحسن معه فيقول : وأحسن وأجمل

بالذى فعلاه :

ولو بمشار العين . يوحى إليهما لو شك اعتزال العيش لاعتزلاه
يودان إكراما ، لو انتعل السها وأن حُذيا السلاء وانتعلاه
يذم لفرط الغى ما فعلا به وأحسِن وأجمل بالذى فعلاه

٣٣٧ - ٢

والذى عد الاشتغال بالنسل ، اشتغالا بما لا ينفع ، هو الذى يعنف من
يمن على أبنائه بالنز ، ويلفته إلى صنيع الطير لأبنائها ، وإعطائها إياها
ما فى حواصلها :

مننت على أبنائك النز آسفا فأنت عليهم كالآلد المفاصل
ولم تسع فيهم ليلة سعى متعب الى أن يبين الصبح شيبة ناصل
ألم تر زغبا أدجت أمهاتها فألقت لها ما حصلت فى الحواصل

١٨٦ - ٢

وهو يتحدث عن صنيع القطا فى هذا فيصفه فى موضع آخر قائلا :
عجبا للقطا ، من الكدروالجو ن ، غدت فى عناها المتواصل
لقطت حبة وجاءت بها الآف راخ ، ثم استقت لها فى الحواصل

٢١٥ - ٢

وأخيرا فإن أبا العلاء الذى يظن أنه صمم على عد النسل جنابة ، واختار
هذا الرأى من آرائه ليحمله شاهد قبره ، ويعرفه به الخالفون بعده من
الملمين بمثواه ، فطلب - فيما يروى - أن يكتب على قبره البيت المشهور (١)
هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد

أبو العلاء ، هذا هو الذى يعد النسل أفضل عمل فى هذه الدنيا ، ويعد
السعى له عملا معقولا ، ويقول : -

دنياك دار كل ساكنها متوقع سبباً من النقل
والنسل أفضل ما فعلت بها وإذا سعيت له فعن عقل

٢٠٦ - ٢

فهل أثر أبوالعلاء العدم، ورأى من الواجب اتقاء الوجود، والاجتهاد
في قطع سلسلته. ١١٩٤... هذه آراؤه في المجتمع الصغير وهو الأسرة.
وأما ...

العزلة

ومجانبة المجتمع الكبير ، فلم يخلف فيها عاداته ، فهو يعد المختلط بالناس
البر السعيد ، ويقول نائرا : من اختلط بالعالم ، وصبر عليهم ، وكف نفسه
عما يستحسن سواه ، فهو البر السعيد - ف ٢٧٠ - .. كما يشير إلى ضرر
العزلة فيقول : إذ كانت الوحدة تغير المعقول ، وتصرف قائلا أن يقول (١)
فهو يرخص لمن لا يطيقها أن يزور غبا فيقول :

وإن لم تطق هجران رهطك دائما فمن أدب النفس الزيارة عن غب

١ - ٩٦

والشيخ الذي شعاره « قاطع » هو الذي قال :

ولو أني حببت الخلد فردا لما أحببت - بالخلد انفرادا

فلا هطلت على ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

سقط ١ - ١٥٩

فان يكن هذا ليس من متأخر شعره ، فإنه هو القائل في اللزوميات :

وتدثر الأوطان حب ، وطالما قنص الحمام على الغصون الميِّد

١ - ٢٣٥

والذي يأمر بالفرار من الناس هو الذي يرى أن يساعد المرء ضده ،

ولا خير في الاخوان إن لم تساعد

إذا جل خطب ساعد المرء ضده ولا خير في الاخوان إن لم تساعد

والذى يطلب التوحش فى بيدااء تخلصا من الناس ، هو الذى يأمر بالمشاركة
العامة فى إصلاح الجماعة ، ويقول :

غير ، وأنكر على ذى الفحش منطقه إذا أجاز خنازير خنازير

٢٦٠ - ١

ويشتد فى هذا ، حتى يقرر وجوب تعزير الملك على أخطائه :

يعزّر الملك توقيرا ، وحق له على المآثم تأديب وتعزير

٢٦٠ - ١

تقابل آراء أبي العلاء

He's a genius

Abou-Ehau

- ١ -

ذلك جانب آخر من صورة أبي العلاء ، أو صورة ثانية غير مألوقة

لشخصه ولآرائه ، في أمور إنسانية ، بعيدة عن المسألة الدينية ، وعن خفيات

الفلسفة ، وله هو فيها سلوك خاص ، قيل أنه التزمه وأخذ نفسه به .

عرضنا هذا الجانب الثاني من آراء الرجل ، لنستطيع على هديه ، الإجابة

عن السؤال الذي سبق أن وجهناه ، بعد ما رأينا موقف أبي العلاء في مسألة

المعرفة ، وتنقله بين الآراء المختلفة فيها جميعا . . وهذا السؤال هو : هل لأبي

العلاء آراء ثابتة ؟ . . ولعلنا بعد هذا العرض نسمع إجابة أبي العلاء نفسه عن

هذا السؤال بقوله :

فقارب وباعد ، واحب واعل ، ولا تقل وقولان ، وجاهر بالمراد وكاتم

٢٥٤ : ٢

فليس لأبي العلاء فيما عرضنا له من الموضوعات ، رأى ثابت مع أنها أولى

ما ثبت له فيه رأى . . . وليس لأبي العلاء — فيما ثبت الاستقراء المطمئن — رأى

ثابت ، لا فرق في ذلك بين دين ودنيا ، وفن وحكمة ، وأدب وعلم . وكل الفرق

أنه في الشيء الواحد قد يتعادل إثباته ونفيه في كثرة ما يرد منهما ، وقد يكون

الايجاب كثيرا ، والنفي قليلا أو العكس ، وليس لهذه القلة في جانب والكثرة

في آخر قيمة في تقدير آراء أديب متفنن ، لأنه فيما رأينا يطلق القول مثبتا ، ثم يطلقه

ونافيا ، فيهدم نفيه المطلق اثباته المطلق ، سواء أنفى خمسين مرة وأثبت مرة ، أم

أثبت مائة مرة ونفى خمسين ، فنحن لا نحصى عدد النافين والمثبتين من أشخاص

يقترحون ، بل نرصد النفي والاثبات من شخص واحد ، يظن أنه فيلسوف انتهى به بحثه إلى شيء ، وأجرى حياته على وفقه وهو شأن الفيلسوف — على ما سنعرض له بعد — كما أنا لانحاسبه على أخطاء ارتكبتها ، لنعاقبه أو نغفو عنه ، فتكون القلة أو الكثرة عاملا في تقدير هذه الأخطاء... وإنما نحصى آراء ، توافقت وتخالفت ، على أنك بعد ذلك كله ، قد قرأت فيما عرضناه من آرائه في المسائل الانسانية موافقة كثيرة تخالفا الأصل ، ثم قرأت مخالفة كثيرة تخالفا الأصل ، فما تدري بأيهما قال ، وبأيهما معه تقول !!؟ وهكذا يستطيع المستقرى لأقوال أبي العلاء أن ينضد منها ثبوتا وجريدة متقابلة ، جانب منها للاثبات وجانب للنفي ✱

ولشد ما يعنيني أن أوجه النظر هنا ، إلى أني إنما عرضت ما عرضت من آراء أبي العلاء في أمس الأشياء به ، لأبين أن التناقض ظاهرة عامة شاملة في آراء أبي العلاء جميعا ، وإنما يعنيني هذا لأن القدماء ، ثم المحدثين معهم ، عند النظر إلى تناقضه ، والبحث في تعليله ، إنما وقفوا عند تناقضه في المسألة الدينية فقط ، أو لم يذكروا غيره ، فلم يعلموا غيره ... ثم لم يتصدوا في التعليل إلا لاعتبارات دينية لا غير ... !!

فقد أثبت تناقضه داعي الدعاة ، في مناظرته له ، حول تحريم الحيوان ؛ فقال : إن نظم أبي العلاء في هذا المعنى يناقض نثره ، ونثره يناقض نظمه فكيف الحيلة ! (١) وذكر الباخرزي في الدمية — ص ٥٠ — اضطرابه بين التدين والاحاد

وساق الذهبى ذلك، وزاد عليه أشياء أخرى كلها دينى (١) .. وذكر الصفدى تناقضه عند ما تحدث عن المعاد، واختلاف أقواله فيه (٢) .. كما أن من عرض لتناقضه من المحدثين، نظر إليه فى الأفق الدينى، ورجع فى تعليقه إلى اعتبار دينى لا غير، فلاحظ أنه كثيرا ما يثبت البعث وكثيرا ما ينفيه، وكثيرا ما يثبت الجبر، ولا يكره أن يثبت الاختيار، وكثيرا ما يهزأ بالدين، ثم لا يكره أن يحث عليه، ويعلل ذلك بأنه كان تناقضا مقصودا، من غير شك؛ قد ذهب به مذهب اللبس والتعمية، قصداً إلى التقية، وهى مذهب معروف (٣)

ولكننا قد رأينا تناقضه فى حب الدنيا وكراهيتها، ولو أحسبها أبداً وكان من أنشط طلابها - كما كان كذلك حيناً ما - ما أنكر عليه ذلك أحد، ولو كرهها أبداً ما كفره أحد .. وقد تناقض فى المرأة فعدها شراً وضراً وعدها نعمة وجنة، ولو أخذ بأحد هذين الرأيين أبداً، ما قاتله أحد .. وتناقض حتى فى اختيار الميتة التى يموتها، فقد عد موت الوغى بضربة السيف سعادة، ثم عد أحسن ميتة الرجل ما كان على فراشه، تشتد به العلة .. الخ .. وليس لمثل هذا رأى يغضب الناس، ويحاكمون أحداً، حتى يلجأ إلى التقية ..!! لقد تناقض فى كل شئ مما للناس فيه اعتقاد وقول يحترمونه، أو ليس لهم فيه رأى يلتزمونه، فكيف تكون التقية تعليلاً لتناقض أبى العلاء، فيما لا موضع فيه **لحقية** **لحقية** أبداً بل إلى لارى التقية لا تصلح أبداً علة لاختلاف أقوال أبى العلاء حتى فى الأمور الدينية - لأن التقية - كما يصفها المعللون بها انما هى اختلاف ظاهر وباطن، طاعة ظاهرة وقلب مخالف، وتوافق ظاهر، وإضمار خلاف

(١) ترجمة الذهبى لأبى العلاء ضمن رسائله، طبعة أ كسفورد ص ١٣٣، ١٣٤

(٢) نكت الهميان فى نكت الهميان ١٠٦

(٣) ذكرى أبى العلاء ص ٣٤٦ - ٣٤٧

وهذا من التقية مفهوم، لأنه إخفاء ما يكره الناس، ويغضبون من أجله . أما حين يقول الرجل قولين متخالفين ، ويعلنهما على السواء ، ويجهر بهما معا فإن الناس سيأخذونه بالقول السوء ولا بد، وإن يشفع له عندهم، أنه قال قولاً حسناً ، وبخاصة إذا كانت المسألة مسألة العامة والجاهير ، أو مسألة المتعصبين من الفقهاء المرتزقين بفقههم ، وهل ترى الناسك الزاهد، المعتقد المتبرك به حين يظهر منه الكفر الصراح، ويجهر به، سيغفر له الناس هذا ويعتذرون له بخيره الأول؟ كلا... ولعلنا نذكر أنه في محكمات الزنادقة ، قد كانت توجه أقوالهم غير الصريحة ، وتفسر إشاراتهم غير الواضحة تفسيراً متهما يؤخذون به ، ويقضى عليهم... فكيف يكون صنيع أبي العلاء من التقية ، وقد ظهر منه القول الصريح الكافر الهازي... !!

وفي كل حال فسواء أ كانت التقية لا تعلل مطلقاً تقابل آراء أبي العلاء الدينية ، أم كانت تصلح لأن تعلل التقابل في الدينيات فحسب ، فستظل وراء ذلك تناقضات أخرى ، وتقابلات كثيرة، تحتاج إلى التعليل .. وهذا موضع الرأي الذي رمناه في أبي العلاء-

وإنى لأحسب أن أبا العلاء نفسه قد شعر بهذا التناقض حين قال :

جهل مرأى أن تكون موافقى وشكوك نفسى بينهن تعادى

٢٣٧ : ١

وكأنما أراد الاعتذار لهذا التناقض منه ، أكثر من مرة كقوله :

تناقض فى بنى الدنيا كدهرهمو يعضى المقيظ، وتأتى بعده القرر

٢٥٤ : ١

أو قوله :

وعالم فيه أضداد مقابلة غنى وفقر، ومكروب ومقرور^(١)

٢٥٩ : ١

أو قوله :

والملك لله ، والدنيا بها غير خير وشر ، وإعدام وإيجاد

٢٠٤ : ١

أو قوله :

وإن أخا دنياك ، أعمى يرى السها عليل معافى ، ظالم يتظالم

٢٢٨ : ٢

فالرجل يحس تناقض الدهر في فصوله المختلفة ، وتضاد العالم ، وتقابل
الأضداد فيه ، واختلاف أحوال بني الدنيا ، ويشهد عليه الاشتباه فيشكو تضاد
الأشياء في الحس ، قائلا :

ولكل ما أصبحت تدرك حسه ضد ؛ وكبرة من ترى كصغار

٣٤٣ : ١

وكأنه حينما يؤثر هذا التضاد في العقل أثره يقول :

ويعتري النفس إنكار ومعرفة وكل معنى له نفي وإيجاب

٦٨ : ١

وسواء أكان هذا دليلا على أن أبا العلاء ، قد شعر بهذا التقابل في آرائه ،
فقصد الاعتذار ؛ مثل هذه الآيات من قوله ، أم لم يكن قد أراد الاعتذار
عن شيء منه ، فإن التقابل في آراء أبي العلاء — دينية وغير دينية على
السواء — ظاهرة واضحة ؛ لا تعلمها التقية ؛ ولا القصد إلى الاستخفاء .. ظاهرة
واضحة تحتاج إلى تعليل متسق ؛ ولكننا لا نعرض لهذا التعليل ، إلا بعد أن
ننتهي إلى رأى بشأن :

فلسف أبي العلاء

لنعرف أكان صنيع الرجل فيما دوّن من آثاره؛ صنيع متفلسف؛ فنخضع عمله لمنطق العقل؛ ونحتكم اليه في فهمه ودفع تناقضه، . أم كان صنيع متقن أديب متأمل؛ فنخضع ذلك كله لمنطق العاطفة والوجدان، ونقدر فيه أثر العوالم النفسية المختلفة؟

وقد طج المحدثون بتفلسفه، وأسلفنا بعض وصفهم له بذلك، بل إنهم عدوه فيلسوفاً أبيقورياً. ولحوا نواحي التشابه بين أشياء عنده، وأشياء في المدرسة الأبيقورية (١). فلنعرض صنيع أبي العلاء على الفلسفة، كما يعرفها أبيقور هذا حين يقول: إنها هي الحكمة العملية التي توفر السعادة؛ بالأدلة والأفكار (٢).

وهو قول لا يفرق كثيراً عن الفكرة العامة في الفلسفة؛ وأنها دائماً هي البحث الحر عن الحقيقة، مهما تختلف الاعتبارات في تعريفها. فإذا ما عرضنا صنيع أبي العلاء، في آثاره المختلفة على الفلسفة كما عرفت، تبين لنا ما يأتي:

أولاً - ليس لأبي العلاء بحث بالمعنى الصحيح، عن الحقيقة، وليس هنالك إلا خواطر منشورة، في جملة أو فقرة قصيرة؛ أو منظومة في بعض شطر، أو في شطر من بيت، أو في بيت أو بيتين، أو أكثر من ذلك قليلاً، فليس من الانصاف لتاريخ الفلسفة، ولجهود الفلاسفة أن يسمى مثل هذا الصنيع فلسفة وبحثاً، مهما تتناول هذه المنشورات أو المنظومات، من آراء

(١) الدكتور طه حسين بك في ذكرى أبي العلاء، ومع أبي العلاء في سجنه

(٢) تاريخ الفلسفة اليونانية للأستاذ يوسف كرم ص ٢٨٧

وفكر فلسفية ؛ ومهما يكن نوع الفلسفة التي تشير إليها هذه الفقر والمعاني
الاجمالية ، اشارات مبهمه ، أو لائحة بمحمة ، لا أكثر ولا أقل وإنما قول أبي العلاء
في كل ذلك ^{هو} أشبه شيء بالممثل العامي ينتظم فكرة ، قد تكون رأس فلسفة ،
وخلاصة مذهب ، وماهى في حساب قائلها الأول أو ضاربها الثانى ، إلا مغزى
حكائية ، وثمره ممارسة ؛ وملحظا واقعيا ، لحادثة أو عمل كان . وذلك
شئ غير البحث الفلسفى والتأمل الدارس ، الذى يجرد المتفلسف نفسه له ^{قواه}
ويصطنع له منهجه ؛ ويأخذ نفسه بطريقته في المعرفة ، ليعرف حقائق الأشياء على
ماهى عليه ؛ كما يقول الأفديمون ، وليفكر ويقدر ، ويسبب ويعلل .

ثانيا - : أن مسألة المعرفة ، وهى شطر الفلسفة ، لم نستطع أن نعرف
لصاحبنا فيها اتجاهها ، ولا منهج تفكير فهو فيما عرضنا - أول الحديث -
من شعره ونثره ، فى أدوار حياته المختلفة ومراحل سنه المتباعدة ، يثبت إمكان
المعرفة ويذكر وسائلها . وينكر إمكان المعرفة ، ويهدر تلك الوسائط ، واحدة
واحدة . فهو يوقن وهو يشك ، وهو يحار ، وهو يطمئن ، وهو ينفى ، وهو
يثبت ، وهو لا يثبت ولا ينفى . . . فلا يسع المدقق إلا أن يعد ما نظمه أبو
العلاء فى المعرفة ومذاهبها . ضربا من الشعر التعليمى ، يمكن اتخاذ عناوين منه
لمختلف الآراء ، فى المناهج التفكيرية الفلسفية ، أو يمكن اتخاذ عناوين له ،
من تلك المذاهب التفكيرية . . . وأما أن يكون شئ من ذلك التنظيم والنثر ،
مذهبا فى المعرفة خاصا ، فما احسب هذا يهون ولا يقبل ^{لأنه} ! وكما لا نطمئن
إلى أن لهذا المتحدث عن الفلسفيات دستورا للتفكير أو البحث ؟

ثالثا - : إذا ما كانت الفلسفة هى الحكمة العملية ، بالأدلة والأفكار ،

كما في تعريف ابيقور ، الذي احتسبوا أبا العلاء صديقا لفلسفته ، فائن كننا
قد نتسمح بأنه يسوق في آثاره فكرا ، فإنه لا يستدل لها ، إلا بالتشابه
اللفظي بين الكلمتين ، أو بالملاحظة الساذجة ، أو المناسبة المستملحة ، هلى ما
يشعر به المتصل اتصالا ما ، بشعره ونثره ، ولا حاجة بنا الى الاستكثار
بسوق الشواهد المجتمعه عليه هنا ، لأنه واضح مستبين ، يحده القارىء في كل
ما يصيب من آثار صاحبنا . ومثل هذا من المجانسة أو المشاكلة أو المشابهة
أو المناسبة ، وما اليها في لفظ وتعبير ، لن يعد في حساب الفلسفة استدلالا ،
ولاشبهابه ، والا فقل لى بربك : كيف يدل اتخاذ الكل للنساء ، على أنهم أذى
وكيد يحسن فيها !! وكيف يدل اتفاق النعش والانتعاش في لفظهما على فضل
الموت ووجوب التخلص من الحياة !! وكيف وما يعرفه من قراء آثار
أبي العلاء ! وهل هان الاستدلال الفلسفى الى هذا الحد ، فصارت الصنعة اللفظية
التي يمحقتها الأدب ، وينكرونها أو ينكرون الكثير منها على أبى العلاء ،
عملا فلسفياً عقلياً ، يسلك به الرجل فى زمرة الحكماء ، إذا جودل فى احتسابه
من الشعراء .

رابعا - : أنا إذا ما تساهلنا فى كل ذلك ، فعددنا هذه المرسلات
المتفرقة آراء فلسفية ، وتركنا الأدلة والاستدلال جانباً ، ورحنا نعرف
مذهب أبى العلاء ، والوحدة الفلسفية التي تعنون مذهب ، فماذا نجد ؟؟ إنك
لتجهد فى أن تعرف مذهب أبى العلاء ، فيما عرضت عليك من كثير قوله ،
فى الشؤون الانسانية ، كالزهد والجد ، وحب الحياة وكرهها ، والمرأة
والزواج ، والنسل ، والعزلة و . . إلخ فلا تستطيع أن تخرج بشئ معين ،

فهو كما رأينا وسمعنا ، زاهد وكادح ، منكر للزهد ، وحاض على التمتع ، وهو
اسك يتحسر على الشباب ، وهو محرم النسل ، يعده أفضل ما عملت في
الدنيا ، وهو معتزل منفرد ، لو حبى الخلد فرداً لما أحب في الخلد انفراداً . وهو ..
ثم هو .. فأين نضع بين الفلاسفة صاحب هذه المتقابلات ؛ التي شملت كل شيء

تعرض له ؟ وما مذهبه من هذه المتقابلات (١) ؟؟

خامساً : — إن الفلسفة إنما تتميز بتأثيرها على سلوك الفيلسوف ،
وعدم اختلاف قوله عن فعله ، وهي بذلك تفترق عن العلم ، إذ تطبع فلسفة
الفيلسوف سلوكه ، ولا كذلك يفعل العلم ، فالفيلسوف الذي انتهى به

(١) يذكر صاحب كتاب « أبو العلاء وما إليه » ما يظن أنه توفيق بين تفلسفه
وتناقضه فيقول في ص ٢٩٩ مانصه :

« وليس معناه أنه كان يهذى هذيان المتهوئين ، بل الحقيقة ليس في الدنيا شيء إلا وله جانبان ،
من جهة حسنة في بعض الأحيان ، وقبحه في غيره ؛ فالفيلسوف الطبيعي هو الذي لا يغفل عن
الجانب الآخر ، والطبيب الخاذق هو الذي يعرف بمحل الداء ومقداره ، فيصف له الدواء
الصالح ، فأبو العلاء إذن فيلسوف بالطبع لا بالتصنع والتكلف . حتى تغلب عليه الفلسفة في
غير حينه ، شأن الفلاسفة المتفقيهن » اه ... ولا أعرف معنى الفلسفة بالطبع والفلسفة بالتصنع ،
كما لا أعرف التفريق في الفلسفة ، والفيلسوف إنما هو المفكر الذي يجري حياته على مذهبه ،
على ما تقرأ في الفقرة الخامسة من هذه الفقرات !! كما أنني لا أفهم كيف يكون ادراك ما في جانبي
الشيء على اختلاف الاحوال سبباً للتناقض !! فلو أن أبا العلاء يدرك أن شيئاً ما حسن من جهته
أو في بعض الأحيان ، وقبيح من جهة أخرى وحين آخر ، فيقرر ذلك مقيداً بوقته وحالته ،
لما كان هناك تناقض ولا ما يشبه التناقض في شيء ، ولكن أبا العلاء ينفي نفياً عاماً مطلقاً ،
ويثبت إثباتاً عاماً مطلقاً ، على ما قرأت من متقابلاته التي عرضتها عليك ، ووجدتها في مختلف
آثاره ، ومتفاوت أعصره ، فكيف تكون هذه فلسفة بالطبع لا بالتصنع !! هذا ما أعترف
في لم أفهمه !! ولا أتبين فيه توفيقاً ما ، بين تفلسف أبي العلاء وتناقضه ... !!

الدرس الباحث إلى كذا من رأى فى الخلق والعمل ، لاتبجده يخالف هذا الذى ذهب إليه وانتهى به درسه ، على حين ترى العالم الرياضى أو الميكانيكى مثلاً، بوهيمى السلوك ، مشوش العمل ، مضطرب التناول ، رغم ما وقف عليه حياته ، من دقة وضبط ، وتحديد ونفاذ ... وإنما نعى بالفيلسوف والعالم الاصيل ، منهما ، صاحب الصفة الكاملة فيهما ، فالفيلسوف هو المفكر المتأمل الاصيل، الذى يسخر قواه لمعرفة الوجود ، ويتبع عمله رأيه ، وليس هو متعاطى الفلسفة قراءة أو تعليماً أو ترجمة أو نحو ذلك من اتصال ، قد تبعث عليه أناقة، أو طرافة ، أو تلمية ، أو تكاثر ، أو نحو ذلك ، مما يقع للمتصلين بالفلسفة ، والواصلين أنفسهم بها ، أو الذين وصلتهم ظروف الحياة بها ، فهو لا هم من لانعنيهم إذا أشرنا إلى تأثير التفلسف على السلوك ، وطبعه له ، وتوجيهه إياه .. فلا يشتبه الأمر فى ذلك .

وهذا التأثير للفلسفة على السلوك ، مما لحظه مفلسفو أبي العلاء ، فى هذا العصر ، فعقد الأستاذ الدكتور طه حسين بك ، فى كتابه « ذكرى أبي العلاء » فصلاً عنوانه : هل أبو العلاء فيلسوف ؟ أورد فيه تعريف الفيلسوف ، وبين تحققه فى أبي العلاء ، وإليك قوله ، بيانا لفكرة تأثير الفلسفة على السلوك ، فهو يقول : -

« مهما كان أصل هذا اللفظ فى اليونانية ، ومهما كانت معانيه عند المسلمين ، فإننا نفهم منه رجلاً درس^(١) العلوم الطبيعية والآلهية ، والخلقية »

(١) يعبر الأستاذ هنا بلفظ « درس العلوم » كما سيعبر بعد قليل ، بقوله « أتقن هذه العلوم » وليس الفيلسوف محصلاً يدرس ويتقن ، والادق ما سيعبر به أخيراً ، فى قوله « بحث عن حقائق

« درسنا علميا متقنا ، وبسط سلطانها على حياته العملية ، وسيرته الخاصة فلم »
« يكن تناقض بين هذه العلوم وبين أعماله . وكذلك كان الأقدمون من »
« فلاسفة اليونان يفهمون هذا اللفظ ، فالرجل الذي أتقن هذه العلوم ، ولكن »
« حياته تناقضها ، فهو يعرف الفضيلة ويناضل عنها ، ولكنه لا يصطنعها »
« في سيرته ، ليس بالفيلسوف عندنا الآن ، وإنما هو عالم بالفلسفة ؛ »
« والرجل الخير يؤثر الفضيلة ويحرص عليها ، لأن نفسه قد فطرت على »
« ذلك ، من غير أن يكون متقنا لهذه العلوم ليس بالفيلسوف عندنا الآن »
« أيضا . وإنما هو رجل خير لحسب . فإذا جمع بين هذين الطرفين فأجاد »
« الحكمة علما وعملا : أي بحث عن حقائق هذا العالم . وكانت حياته موافقة »
« لنتائج بحثه . فهو الذي نفهمه في هذا الكتاب من لفظ الفيلسوف »

« أو الحكيم »

وهذا الذي فهمه الأستاذ ، وانتهى إليه من أن الفيلسوف بحث عن
حقائق هذا العالم ؛ وكانت حياته موافقة لنتائج بحثه ، هو ما نريده هنا من
الفيلسوف أو الحكيم . لكن الأستاذ تقدم بعد ذلك فيما يلي من هذا الفصل
لأثبات هذه الصفة لأبي العلم فقال :

« إذا صح هذا فما قدمنا في المقالة الثانية من سيرة أبي العلم . وأخلاقه »
« وحياته في منزله وبين الناس . ومن درسه للفلسفة في أنطاكية وطرابلس »
« وبغداد ، يدلنا على أنه قد كان فيلسوفا حقا . كما سيدلنا على ذلك درسنا »

هذا العالم . وكذلك يكون الفيلسوف ، وليس هو دارس يتقن علوما مقررة مدونة
أو يحصلها .

« للزوميات » ١ هـ من ذكرى أبي العلاء ص ٣٢٩ - ٣٣٠ من الطبعة الأولى.

ونرجع إلى المقالة الثانية فنقرأ أنه كانت بأنطاكية مكتبة عربية،

تتضمن من نفائس الكتب، على عدد غير قليل: فحفظ منها أبو العلاء

ما شاء الله أن يحفظ - المذكور ص ١٥٤ ط أولى - وأن أبا العلاء وصل

إلى طرابلس. وكانت بها مكتبة كبيرة وقفها أهل اليسار فدرس أبو العلاء

منها ما شاء. ثم عاد إلى معرة النعمان - المذكور ص ١٥٧ ط أولى - وأما

في بغداد (فما لاشك فيه أنه لم يجلس مجلس التلميذ من أحد) - المذكور ص

١٩٠ ط أولى - ولم يكن في بغداد أستاذا ولا تلميذا. وإن كان قد زار

مكتبتها، وقرأ ما فيها من كتب الحنكة، وحضر المجمع الفلسفي بدار عبد

السلام البصري - المصدر السابق ص ١٩٢ - وإذا ما كان درس أبي العلاء

للفلسفة في أنطاكية وطرابلس وبغداد أيضا هو الحفظ من المكاتب، فأنت

لن تطمئن إلى أن هذا هو البحث عن حقائق العالم. الذي عرفنا أنه شطر عمل

الفيلسوف.. على أنك تجاوز هذا وتفرض أن أبا العلاء أجاد الحكمة علما

وعملا، أي بحث عن حقائق هذا العالم، وتسأل أ كانت حياته موافقة لنتائج

بحثه، كما يجب أن يكون الفيلسوف في تقرير مفاسني أبي العلاء أنفسهم؟؟

وهنا يبدئك في الإجابة عن هذا السؤال ما قرأته لأبي العلاء. من

نتائج بحث - إن تساهلت فسميتها كذلك - فلا تعرف له نتيجة ثابتة.

لم يخالفها. ولم يقرر غيرها. فإلى أي نتائج بحثه كان يستند سلوكه؟؟ وقد قال

الشيء وضده دائما أو على الأقل: فيما قرأت هنا من أمور الحياة العملية..

وإذا لم تعرف إلى أى نتیجتى بحثه . وأى عبارتى قوله استند فعله . فقد بقى أن فعله لا يستند إلى شىء من قوله ، ولعل هذا ما نستطيع القول به حين نتحدث عن « أبى العلاء بين قوله وفعله » فيما يلى من هذا الرأى .

✧ فلو كانت العزلة والوحدة كما دعا إليها ، وحبب فيها أحيانا ، لوجب أن يلتزم العزلة دائما .. ولكنه لم يفعل هذا - كما سترى - ولو كانت العزلة غير محبوبة ، والاختلاط والتعاون والسعى فى الأرض خيرا لوجب أن يكون ذلك عمله .. ولكنه كذلك لم يفعل هذا دائما ، أو لم يفعله على وجهه ، فقد حاول العزلة ، وأعلن أنه صمم عليها ، ولكنه ظل يختلط ويدرس ويشقف ، ويلقى الناس كثيرا أو قليلا !

ولو كانت الحياة ، كما كرهها وكره فيها ، لحرص على التخلص منها ... ولكنه رغب فى هذا التخلص ، ولم يفعل ..

ولو كانت الحياة محببة بالغريزة . وهو يحبها ، كما قال ، لأقبل عليها واطمأن إليها .. ولكنه لم يفعل ذلك خالصا ولا متسقا .. (وفى كل حال فإن صلة ما بين قوله وعمله ، لم تجر على دستور الفلاسفة المعروف) ، الذى قرأت تقريره فى قول مفلسفى أبى العلاء انفسهم .. (وقد فعل أشياء وافقت بعض قوله ، ولكنه) خالف كذلك بعض قوله ، فقال إلى الإقلال والقناعة ، وكف عن التكثر والتمتع وترك الزواج ، وبذلك لم ينسل .. وأنت غير مستطيع أن تجعل هذا موافقة لقوله أو لنتيجة بحثه ، لأنه يوافق بعض القول ، حين يخالف بعضه ، فبقى أن تلتبس مرجحا آخر . غير هذا القول المتفلسف ، أو التفلسف الباحث . قد كان سبب

ما جنح اليه أبو العلاء في أمر حياته ونظامها . . وهو ما وعدناك أن نعود

اليه بعد الانتهاء ، إلى وجه الرأي في تفلسفه ، الذي رأينا منه حتى الآن : أن

أبا العلاء لا يظهر فيلسوفا بالمعنى المعروف لهذه الكلمة ، ولا لفلسفة خاصة

تقوم على منهج تفكير ، واسلوب بحث ومذهب في المعرفة ، وتقرر آراء

واضحة معينة . وإنما لهذا لا نجد حتى الآن ما يدلنا على أنه قد كان فيلسوفا

حقا . بل إننا لنجد غير قليل مما يدلنا على :

أولاً: نقول إن هناك أسياً كبيراً من أن
وإنما إدراك حقيقتها تبقى من طريق التخييل ولذلك
فهي تشبه الجنون وليس الدشبات .

أخيراً أبي العلاء بمنهج الفلسفة

فمن ذلك أولاً: أن هذه الفلسفة ليست إلا البحث الحر، لا يحد نظر
المفكر فيه حد، ولا يحدكم في عقله، غير منهجه، فهو لا يعترف بأسرار محجبة
ولا يسلم بوجود مناطق في الكون محرمة على العقل، وذلك جلي في طابع
التفلسف، لا يحتاج إلى فضل بيان أو تأييد، ولكن صاحبنا يخل بهذا في مثل
قوله، بعد حديثه عن الروح:

وروم الفتى ما قد طوى الله عليه يعد جنونا أو شبيه جنون

٣١٠ : ٢

فيجعل في موضوع البحث والتفكير، ما طوى الله عليه، ويرد العقل
عنه، بل يقسو في رده، فيعد رومه معرفة هذه المطويات، جنونا أو شبيه
جنون !!! وإنك لتقرأ هذا في حديث من سموه فيلسوفاً، عن الروح، فتذكر
حين تقرأه أن الغزالي - وهو رجل قد عادى الفلسفة وناهضها، ووقف في وجه
حريتها العقلية، بكل ما يستطيع - يسمع قول القرآن، كتاب دينه عن الروح:
« قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » فلا يمنع ذلك من
تقرير إمكان التحدث في الروح، وتفسير كونها من أمر ربه، تفسيراً
لا يجعل رومها جنونا ولا شبيه جنون، كما يقول أبو العلاء المتفلسف،
الموصوف بالجرأة

وإنني إذ أقرر ذلك، لأذكر أن أبا العلاء - كدأبه - قد قال ما يغيّر

هذا المعنى، حين رأى أن الظن والتجربة كافيان لمعرفة الغيوب:

إذا قرن الظن المصيب من الفتي بتجربة جاء بعلم غيوب فلم يثبت على رأيه حتى النهاية، وإن كان هذا القول الأخير لا يناقض المعنى الأول تماما، إذ قدرة العقل بالتجربة على علم غيوب لا تنفي أن في الغيوب مناطق، قد طوى الله عليها فلا ترام. ورومها جنون أو شبيهه جنون...!! وكذلك يخل أبو العلاء بأصول التفلسف: إخلالا يزيد ظهوره ووضوحه. حين تعرف من أمره :

ثانيا - أن الفلسفة إنما هي فهم العالم فهما عقليا، يقوم على تقرير أن المسبب يترتب على سببه، والنتيجة تتلو مقدمتها، لشبات النواميس الكونية والسنن الفطرية، وارتباط المسببات بأسبابها، وأنكار التخلف، ونفي الصدفة وما إلى ذلك. ولعل الخلاف في مسألة الأسباب والمسببات وما يتصل بها، هو أكبر ما بين الدينين والحكام من خلاف. فالدينون على اختلافهم ينكرون هذه السببية، وإطراد السنن. ويقولون بلسان الغزالي - وهو من أكثرهم تنورا - حين عرض لهذه المسألة في تهافت الفلاسفة^(١) فقرر: - أن الاقتران بين ما يعتقد في العادة سببا وما يعتقد مسببا، ليس ضروريا عندهم - أي المليين - وأن مثل الرى والشرب، والشبع والأكل، والاحتراق وملاقاة النار، والنور وطلوع الشمس، والموت وجز الرقبة، والشفاء وشرب الدواء.. وهلم جرا، إلى كل المشاهدات، من المقترنات في الطب والنجوم، والصناعات والحرف، فاقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه، لخلقها على التساوق، لا لكونها ضروريا في نفسه، غير قابل للفرق، بل في المقدور خلق الشبع دون الأكل

(١) التهافت ط مصر ص ٦٥ - ٦٦ باختصار وتصرف يسير.

وخلق الموت دون جز الرقبة ، وإدامة الحياة مع جز الرقبة ، وهلم جرا ، إلى جميع المقترنات ... وفاعل الاحتراق عند ملاقة النار . هو الله تعالى ، أما بواسطة الملائكة ، أو بغير واسطة ، وأما النار فهي جماد لا فعل لها ، وليس لهم — أى الفلاسفة — ألا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقة النار ، والمشاهدة تدل على الحصول عنده لا على الحصول به

وهذا هو ما ينكره الفلاسفة ، ويرون استحالته ، ويقول ابن رشد بلسانهم ، فى الرد على الغزالي فيما قال سابقا (١) :

« .. أما أنكار وجود الأسباب الفاعلة ، التى تشاهد فى المحسوسات فقول سوفسطائى ، والمتكلم بذلك ، إما جاحد بلسانه ، لما فى جنانه ، وإما منقاد بشبهة سوفسطائية عرضت له فى ذلك » .. حتى يقول :

« فالعقل ليس هو شيئا أكثر من إدراك الموجودات بأسبابها ، وبه يفترق من سائر القوى المدركة ، فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل . وصناعة المنطق تضع وضعاً ، أن ههنا أسباباً ومسببات ، وإن المعرفة بتلك المسببات لا تكون على التام إلا بمعرفة أسبابها ، فرفع هذه الأشياء هو مبطل للعلم ورافع له » .

وفى مناقشة ابن رشد لما يسميه المليون فى حصول هذه الأشياء «عادة» ، يذكر الفيلسوف ، أطراد النواميس ويحتج لها بأن الله عز وجل يقول : ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً » .

تلك هى مسألة من أهم ما فرق بين الفلسفة والدين ، وأساسها كما قرأنا — من

قول ممثلى الطرفين هو تحكم أصحاب الدين فى توسط قدرة الله بين السبب الطبيعى والمسبب ، وجعلها الفاعلة باختيار لكل شىء ، وأنكار أن يكون لهذا السبب المشاهد فعل ، وأن يتقرر بذلك ناموس ثابت لا يتخلف ، لرغبتهم فى أن تبقى الكلمة للقدرة الإلهية ، حتى تحول بين المؤثرات والآثر ، فتكون نار ولا أحراق ، ويكون إحراق بلا نار ، ويكون قطع رقبة ولا موت ...

ولو رحت ترقب حرية الفكر فى المليين ، لاستطعت أن تجعل هذه المسألة مقياسها ، وانه يقدر ما يقبل الدينى ، من هذه السببية وثبات الناموس ، يكون حر الفكر ، أو يكون محافظا ، وهكذا تجد المعتزلة مثلا يقررون هذه السببية ويوفقون بينها وبين فعل الله لكل شىء ، وقدرة الله على أن ينشئ الأجناس كلها بلا أسباب ولا مواد ، كما أنشأ نفوس الأسباب والمواد ^(١) . حين تسمع
أهل السنة يقررون مثل الذى قرأت من تحكم قرره الغزالى فى نص التهافت السابق .
وتجد المتجددين ، من الدينين ، فى العصر الحديث ، يحرصون على تقرير :
أن ثبات السنن إرشاد لم يعهد فى غير القرآن ، وينكرون على المليين فى جميع الأجيال ، أن تكون أفعال الله كأفعال الحاكم المستبد ، تستند إلى المشيئة المطلقة ، وتقرأ عن هذا قطعة طريفة للاستاذ الإمام رحمه الله فى تفسير المنار ^(٢) ...

(١) الزمخشري : الكشاف ١ : ١٨٠ عند تفسير قوله تعالى : وأنزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم . سورة البقرة : ٢٢

(٢) ج ٤ ص ١٤٠ وما بعدها فى تفسير قوله « قد خلت من قبلك سنن فسيروا فى الأرض فانظروا » من سورة آل عمران آية ١٣٧

وحيث كانت المسألة من الأهمية ، على ما رأيت ، حتى بسطنا القول فيها نوعا ما ، فمن البين أن نعرض أبا العلاء على الآراء فيها ، لنستبين قربه أو بعده من الروح الفلسفية أو الدينية ، فماذا يرى أبا العلاء في القدرة الإلهية ، والأسباب والسنن الكونية ؟

نحن نعرف من آثاره أنه عرض لهذه المسألة ، الكبيرة الأثر ، في بيان الفرق بين الأصلين : الدينى والحكمى ، فهل كان يفكر فيها تفكير متفلسف له الشخصية الحرة التى يدعيها له مفلسفوه ؟؟ ... سنسمع من قوله الاجابة عن ذلك .

أن أبا العلاء قد أحس حينما ما ثبات الفطرة ، وجنح نوعا ما إلى استقرار النواميس ، فتسمع له مثل قوله فى بعض رسائله .

وقد ذكر من حاله ، فقد أسباب العلم بآفته ، ونشأت فى بلد لا عالم فيه ، وأنه ليس صاحب الثروة فكيف الحدا بغير بعير . فقال : فإن بلغ سيدى الشيخ ، أن سارى الليل . قبض على سهيل ، وأن الأرض أنبتت وشيا وحريرا ، والسحاب أمطر مدا ما وعبرا ، فهو أعلم برده على المبطلين . حسب الأرض ، أن تعتو بخلة وحمض . وعادة السحاب المرتفع فى السماء أن يأتى برى الظاء .. الخ ، (١) .

فهو كما ترى يعد مخالفة طبائع الأشياء من قول المبطلين ، ويطلق القول بذلك الثبات للنواتيس لا يستثنى ولا يقيد ... لكن أبا العلاء ، كما عرفت فى هذا البحث . لا يكفيك فى فهمه بعض قوله دون بعض ، فامض قدما ، تسمعه

حينئذ آخر، يقرر ثبات النواميس؛ لكن في تحوط، واستعداد الانسحاب
- كما يقول الحريون الآن - فاقراً قوله في الفصول^(١) «... والشئ كما فطر،
حتى يأذن له خالقه بالتغيير. فإن قيل: إن الديمة مطرت مداما، وإن
الأرض أنبتت أهداما - جمع هدم وهو الكساء الخلق؛ وأن البرة - الخلخال
ونحوه من الحلى - صيغت من الكعبرة - واحدة الكعابر وهو شئ
يخرج في العضاه، وكل عقدة صغيرة مثل الجوزة ونحوها فهي كعبرة،
وكعابر الرأس عقده - وأن حضنا - جبل بنجد - غار، وتهامة أتت
بحجراً - وهي قضبة اليمامة - فقد كذب القائلون، إنما يتزل من السماء
غريض الماء، وتعنو الأرض بالنبات الغض، وتجود السمرة - شجرة
ترعاها الابل - يمر الثمرة، ولا تنتقل تهامة أبداً، ولا يوجد حضن إلا
منجداً. فاستغفر الله»

فهو كما قرأت يكذب القائلين باخلاف الطبيعة وتغيير أوضاعها،
لكنك تلح في صدر الكلام، هذا الاستعداد الذي أشرنا إليه، إذ يقول:
«الشئ كما فطر، حتى يأذن خالقه بالتغيير، فيجعل للشبات غاية، هي
الاذن الإلهي بالتغيير».

ومثل ذلك قوله في احتياط^(٢) - «أن رضوى لا يخاف أبداً من ضوى
- صغر الجسم - حتى يأذن رب الجبال» فبقاء جبل رضوى على حاله
مرهون بإذن رب الجبال!! وبذلك ومثله تحس اهتزاز يقين صاحبنا بتلك

(١) ص ٣٣٩.

(٢) الفصول ص ١٦٠.

السنن ، وسببية الأسباب ، فإذا ما مضيت تقرأ وجدته ينفي السببية في قوة حين يقول :

وقد يأمر الله الكهـام إذا نبا فيفري ، وقد ينهى الحسام فيكهم

٢٢١ : ٢

ويقول :

لو ينطق السيف نادى ليس لى عمل إذا قضى مالك الأفلاك أنضاني
متى أراد ، فصفعأى اللذان هما بحرا الردى من حياض الموت حوضان
وإن كهمت فأمر الله أكهمنى وإن مضيت فأمر الله أمضاني

٣١٦ : ٢

فقله هذا فى نداء السيف : ليس لى عمل ، وأن كهامه يفري بأمر الله ،
وأنه إن مضى فبأمر الله ، وإن كهـم فبأمر الله ، كاف فى أنه ينفي بذلك
الأسباب ، نفيا لا هوادة فيه ، وأنه لا يرى لهذا الكون نواويس طبيعية ، وإنما
هى القدرة الإلهية ، والأمر الإلهى ... وأبو العلاء بسيفه هذا ، أمضى فى قول
الدينين وأبلغ ، فالرى ليس من الشرب ، ولا الشبع من الأكل ، ولا الموت
من جز الرقة ، ولا قطع بضرب الحسام ، لأنه قد ينهـاه الله فيكهم .. وقد
بعد الرجل عن ميدان الفلسفة بهذا التقرير بعداً تاماً ، ومضى يمعن فى بعده
هذا ، حتى لتجس إذا تابعت قراءته ، أن هذا الذى فلسفوه حقاً ، يسلط
القدرة الإلهية ، والمشيدة الربانية على الكون وشئونه ، ويعرض من ذلك ،
لما يلمتحن بالمعجزات طورا ، وبالكرامات تارة ، ويأمل تحقق ذلك من

غير طرائقه ومعتاد أمره ، تارة لنفسه التي يبدو حبها للحياة والقوة ، في مثل ما قرأت ، أول هذا البحث ، وحيناً يأمل هذه الخوارق لغيره ، أو يمجّد الله تقدرته المطلقة ومشيمته النافذة ، في إمكان تحقيقها قائلاً : لو شاء ربنا . وهو القادر ، لا يعجزه شيء .

ثم هو فيما يورده من ذلك ، تجرّى على لسانه عبارات واصطلاحات تتصل بمقررات لأصحاب علم الكلام الإسلامى ، أو أصحاب الفلسفة العامة ، فتكون حيناً وفق ما قرروها ، وحيناً غير ما عرف عنهم ؛ ولهذا كله سبب قوى ، من عوالم الشيخ النفسية - أو مما يكشفه الدرس غير ذلك - وفي كل حال لا يحسن أن نعرض لصنيعه في حديث القدرة والشيئة ، قبل أن نذكر القارىء بالمهم من هذه الاصطلاحات ، ليقضى برأيه في صنيع أبى العلاء عن بيته ، ويرى رأيه في مكانه بين الفلسفة والدين على أساس صحيح .



فأصحاب الكلام يذكرون المستحيل ويريدون به ما لا يمكن وجوده بل يستحيل وجوده فى الخارج ، لأنه إذا تصورت ذاته مجردة من كل اعتبار لم تكن إلا مستحيلة الوجود ، بحكم العقل القاطع لا بحكم العادة .. فالذهن لا يستطيع أن يتصور له ماهية كائنة ، والعدم من لوازم ماهيته .. وذلك هو المستحيل العقلى كاجتماع النقيضين الوجود والعدم ، فإنّ ذهن لا يستطيع أن يتصور كون الشيء موجودا وغير موجود فى آن واحد . وكخلو الجرم عن الحركة والسكون معاً ، فإنّ العقل يحزم فى مثل هذين بعدم تحقق أحدهما لذاته ، إذ لا يمكنه تصوّره ..

وإذا كان هذا هو المستحيل العقلي . الذى انتفى فيه الوجود . واستحال
التحقق بحكم العقل القاطع فهناك مستحيل سموه : المستحيل العادى . تحكم
بعدم وجوده فى الخارج العادة والألف . وما عهد للناس من شئون الكون
لكن العقل يتصوره ويجده ممكنا ، وله بهذا وجود ذهنى ، لا خارجى ، ثم
قد يكون له هذا الوجود الخارجى فى حال خاصة من تقدم علم الناس بقوانين
الكون . ومعرفتهم قانونا جديدا ، مما يسير عليه الوجود كما قد يوجد فى
الخارج بمعجزة كان يمكن أن تجرى فى عصر المعجزات ، على يد أحد
المرسلين ^(١) . ومثال ذلك المستحيل العادى الذى لا يمكن عادة وجوده .
وإن أمكن عقلا وجوده . مشى الانسان على الماء . أو طيرانه فى الهواء
وصعوده السماء . وما إلى ذلك ، مما تحقق بالمعجزة فيما مضى ، ويتحقق اليوم
بالآجهزة أو بتقدم معرفة الناس بالنواميس . فهو قبل هذا لا يقبل الوجود
عادة ، وفيما عهد الناس من الوجود وعرفوا من قوانينه . ثم يصبح ممكنا واقعا
كالطيران . وسماع من فى أقصى الأرض ، وما إلى ذلك ، مما علم الناس بعد
تقدمهم ، أنه من سنن الكون ونظم الوجود . . فالمستحيل الاول العقلي . هو
مخالفة النواميس الفطرية النظرية .. أى الخاصة بما لا يتوقف على المادة فى
تصوره بالمنطقيات والرياضيات ... والمستحيل الثانى أى العادى . هو مخالفة
النواتيس الطبيعية الواقعية العملية ، أى الخاصة بما يتوقف تصوره على المادة
كالطبيعيات وما إليها ، ويزيد هذا بيانا ، أن أذكرك بتقسيم القدماء للعلوم :

(١) والمعجزة ليست من المستحيل العقلي ، بل هى من المستحيل العادى ، فيما يقرره
المتكلمون أنفسهم ومن أقرب ما يقرؤه فى ذلك رسالة التوحيد للاستاذ الامام من ٨٤
ط سابعه .

إلى ما يتوقف على المادة في تصوره ووجوده ، وهو العلم الطبيعي . وما لا يتوقف على المادة في تصوره ، وإن احتاج إليها في وجوده ، وهو العلم الرياضي .. وما لا يتوقف على المادة لا في تصوره ولا في وجوده ، وهو العلم الآلهي وقد كان هذا التقسيم مما نظن أبا العلاء قد قرأه أو حفظه فيما أُلِّم به من التحصيل الفلسفي . كما نرجح أنه عرف من قول الكلاميين هذين المستحيلين: العقلي والعادي .. وسنرى تناوله الفنى لهذه المعاني . وابن يقح من الصواب فيها ؟

وإذا أشرنا مضطرين إلى هذه المقررات الفلسفية والكلامية لإكثار صاحبنا من التعرض من التعرض لها ، تعرضاً يحتاج إلى الرأي ، فأنتناستطيع أن نلم بعد ذلك بقدر من أقواله في هذا الشأن ، ولعل أكثرها مما أشار إليه في تسبيحه الله وتمجيده ، بما كتب في الفصول والغايات ، إذ العالم النفسى المسيطر عليه ديني واضح

وقد أشرت إلى أن أبا العلاء يذكر تمكن هذه القدرة من تحقيق أشياء تمنّاها لنفسه ، وفيها الأدلة على خواجه ، كالأ يستبعد على مشيئة الله أن تجعله في حال خير من حاله ، فيقول ^(١) «.. المملك لك ، غالب الغالبين ، لو شئت لجعلتني راعى فرق ^(٢) أرقب ثرته ^(٣) والعزوز ^(٤) ، وأميز الشطور ^(٥) والثلوث ^(٦)»

(١) الفصول والغايات ص ٦٧

(٢) التقطيع العظيم من الغنم

(٣) الواسعة مجارى اللين

(٤) الضيقة المجارى

(٥) التى عطب أحد شطريها ، والشطر الضرع

(٦) هى الناقة التى دطب ثلاثة من أخلافتها

أو صاحب هجمة (١) أتلكد (٢) بها أنوف (٣) الكلاء ؛ همتى فى المنغرة (٤) والمخزاب (٥) ... ويبدو فى الصيغة روح التمنى ، لا تقرير أن ذلك فى متناول قدرة الله فحسب .. ومثل ذلك قوله (٦) : « الجوج على ذات عوج ، وهى على سواى سهلة كالأنفاس ، ولو شاء الخالق جعلنى مثل الناس ... » . وهذا ابتغاه من الثروة والقوة والاضطلاع بأعمال الأقوياء الأصحاء ، مهما يكن قريب التحقق أو بعيد ، فإنه أمنية من يطمع فى تغير واقع الكون ؛ حتى يبصر ويفعل ويفعل .. على أن الرجل يبعد فى ذلك ويكثر ، فيقرر اقتدار الله على تحقيق أشياء ، لعلها لو تحققت لناله منها أيضا خير كثير كقوله (٧) : -

« يقدر ربنا أن يجعل الإنسان ينظر بقدمه ، ويسمع الأصوات بيده ؛ وتكون بنانه تجرى دمه ، ويجد الطعام بأذنه ، ويشم الرائحة بمنكبه ، ويمشى إلى الغرض على هامته ؛ وأن يقرن بين النير وسنير (٨) حتى يريا كفرنسى

(١) الهجمة من الابل أولها أربعون إلى ما زادت ، أو ما بين السبعين إلى المائة أو إلى دونها

(٢) أتتبع

(٣) أنف الكلاء أوله

(٤) المنغرة والمنغرة بالميم أيضا : التى يخرج فى لبنها حرة نحو الدم

(٥) التى أصاب ضرعها الحزب وهو داء تضيق منه أحاليق الضرع ويرم

(٦) الفصول والغايات ص ٢٧١

(٧) المصدر السابق ص ٣١

(٨) النير جبل بآعلى نجد ، وسنير جبل بين حمص وبعليك

رهان ، وينزل الوعل الزعل^(١) من النيق^(٢) ، ومجاوره السنو ذنيق^(٣) ، حتى يشد فيه الغرض ، وتكرب عليه الأرض ، وذلك من القدرة يسير سبحانه ملك الملوك وعظيم العظماء . . . وتسمع في هذه القطعة الأخيرة مع تغيير القوى ، ونظام التكوين الإنساني ، تقرب البعيد من الأرض ، ومجاورة القاصي للداني ، وقد أكره الشيخ من هذا ، مقررًا قدرة الله ، على تغيير ما جرى عليه الأمر من شأن السماء والأرض والكواكب وغيرها ينقلها من أماكنها ؛ أو يجرها في غير ما أجريت فيه ونحو هذا ، مما تقرأه في مثل صفحات : ٢٦٤ ، ٣٦٤ وسواها . من الفصول والغايات . . . كما أورد من ذلك ، ما هو من صنف ما عرف ، من معجزات للرسل كقوله . (٤) أن الله إذا أذن ، روى الشعب من القعب .

وأمانى الشيخ لنفسه : أو لغيره . وإخضاعه مختلف الكائنات لتغيير القدرة . وتوجيه المشيئة الإلهية مما يخالف ثبات السنن . ويدفع في استقرارها ويهون من سببية الأسباب . ويؤخرها عن مسبباتها . فهو من مخالفة القانون الطبيعي العملي المعروف لعهد . ثم منه ما قد كشفت بعد قوانين طبيعية أخرى صيرته واقعًا مألوفًا لا يلتحق بالمستحيل العادي . كما كان في مألوف الشيخ وعصره ، حين قال : (٥)

(١) ككتف المتصور جوعا

(٢) بالكسر أرفع موضع في الجبل ، جمعه نياق

(٣) السنو ذنيق الصقر

(٤) الفصول ص ٢٢٧

(٥) المصدر السابق ص ٥٧

« إن شاء الملك قرب النازح وطواه . حتى يطوف الرجل في الليلة الدانية بياض الشفق ، من حمرة الفجر ، طوفه بالكعبة حول قاف . ثم يشو إلى فراشه . والليلة ماهمت بالأسحار . ويسلم بمكة فيسمعه أخوه بالشام ويأخذ الحجرة من تهامة فيوقد بها ناره في يبرين وقاصية الرمال ويجاز^(١) بأكيلته ليمسح في قصور فرغان ، فيعتصر^(٢) بماء المضنونة أو جراب^(٣) »

وأكثر هذا الذي ذكره من الانتقال السريع . أو الاستماع من النائي أو الايقاد من بعيد ، قد تحقق اليوم عملاً ، بعد ما كان الشيخ يعدّه من العجائب التي لا تقاها إلا قدرة الله .. ودعك من أن يكون أبو العلاء بهذه المقالة . قد استشرف لما كدّت في سبيله الإنسانية فبلغته بعد أجيال طويلة حين كشفت نواميس فطرية مكنتها من هذا الانتقال الطائر : أو الاستماع العجيب . أو الايقاد النائي . دعك من اعتداد قول هذا شيئاً لأبي العلاء . فإن ذلك من التعلات الطفلة التي لا تليق بالشيخ ، ولا يحسبها لنفسه لو بعث اليوم فرآها

والآن وقد شرحنا إلى حد ما ، مسألة ما بين الدين والفلسفة . في الأسباب والنواميس ، وقد أشرنا إلى ما تناول أصحاب الكلام والحكمة من اصطلاحات حول القوانين الطبيعية النظرية والعملية ونخالفتها . وسمعنا مقالات صاحبنا فيما يتصل بالأسباب والنواميس . وقدرة الله على تغيير قوانين الوجود العملية الآن أدركنا ما يأتي :

(١) يجاز يغص ، والأكيلة اللقمة

(٢) يستغيث ، وهو من العصر بمعنى الملجأ

(٣) المضنونة من أسماء زمزم ، وجراب اسم موضع فيه ماء ،

١ - أن أبا العلاء لم يسلم في هذه المسألة، وما اتصل بهامن تناقضه

المعروف

ب - أن أبا العلاء وإن ألم بثبات النواميس وسببية الأسباب لم يلبث أن أدخل بالمنهج الفلسفى إخلالا واضحا . وجافى الروح الفلسفية بحفاة بيئة . وأخذ إلى منهج ملى ينكره أصحاب الفلسفة قديما ، وينكره متجددو الدينين اليوم ، لأنه يرفع الثقة بالمنطق والعقل ، ويوسع الشقة الخلافية بين العلم والدين . على حين يبدو نفور القرآن منه . واطمئنانه إلى تحرير العقل . وتقرير النواميس بقوة . وتلك هى النتيجة التى قصدنا إليها فى هذا الفصل ، وتكلفنا شرح ماشرحناه من مقررات دينية او فلسفية لأن الدوائر الجامعية ^(١) فى تفهمها لأبى العلاء . قد تعلقت بمسألة العقل والقدرة المعجزة . وأدارت حولها كثيرا من القول .. وما زلت من أجل هذا اوثر العناية بما بقى من جوانب المسألة فأتناول بالقول : ما ذكره أبو العلاء من أمر المستحيلات . ومن أى الانواع هى ؟ عقلية أم عادية ؟ فلهذا الاهتمام اتابع القول فيها ثم لما وراء ذلك من فهم الشخصية العقلية لأبى العلاء فهما يحلى وجه الراى الذى نطمئن اليه فى أمر صاحبنا

(١) من ذلك ما فى رسالة : الحياة الانسانية عند أبى العلاء ، وهى رسالة للماجستير كتبها السيدة بنت الشاطىء ، باشراف الدكتور طه حسين بك ، وقد نشرت أخيرا ، انظر ص ١٦ إلى ص ٢٤

أى استحيلات ؟

لم يذكر أبو العلاء هذه الأمانى، وهاتيك المقدورات التى تنالها القوة الإلهية . وتستطيع أن تتجه إليها المشيئة الربانية ذكراً مجرداً عن الوصف بل نعتها أحياناً، بما تقف عنده لنرى صحته أو فساده . ثم لنرى دلالاته على حظ صاحبنا من الثقافة العقلية والمقررات الفلسفية

وهو يقول ^(١) فى هذا الصدد - .. ان سمعت ان الرقيق ^(٢) امطر جندلا وأبنت البقيع ^(٣) مندلا ، فقل اما : فى المعقول فلا وأما فى القدرة فبلى ... العادات باذن الله متغيرات » ... فهو كما تقررا يمنع هذين الأمرين فى المعقول فتخالهما ^{بعبارة} سبباً هذه من المستحيل العقلى .. على انه مالم يثبت ان عقب بقوله العادات باذن الله متغيرات . فأذن قوله هذا ، بأنهما من المستحيل العادى .. ثم تنظر انت وراء هذا كله . فتجد ان إمطار السماء جندلا قد دعا به السكفار فى قول القرآن « وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم » .. وهذه هى السماء تقذف بشهب وصراعى هى من الحجارة وما إليها . فليس الأمر حتى من غير المعتاد . فيعد مستحيلاً عادياً .. وأما ان تثبت الأرض عوداً مهما يكن حالها ، او يكن فيهما من اصول الشجر ، فذلك ليس ببعيد ايضاً . فكيف جعلهما أبو العلاء من العادات المتغيرات بإذن الله ! ثم كيف جعلهما مما ليس فى المعقول . فقال . أما فى

(١) الفصول والغايات ص ١٠٩

(٢) السماء ، أو السماء الأولى ، والرقم السماء السابعة

(٣) الموضع فيه أوم الشجر من ضروب شتى ، والمندل العدول

المعقول فلا .. أما انه لو قال . اما في المعهود فلا ، لا تسقت هذه مع قوله .
العادات باذن الله متغيرات . . وإن لم يظهر لنا أن هذا من المستحيل العادي
فليكن من غير المعتاد أى من غير المألوف مثلا . . وفي كل حال فعجوبة
صاحبنا ليست سليمة

وتدع هذا الى قوله في وصف القدرة الالهية ، فترى منه أولا ما يستقيم
كقوله . ولا عجب من أمر الله ، ولمشيئة الله النفاذ (١) ... أو قوله رحمتك
مكون المعجزات ... أو قوله الله القادر على كل بعيد فانه لا بأس به لكنك
ترى إلى جانبه قوله لا يعجزك ممتنع في العقول (٢) ... مع قوله (٣) « يقدر الله
على المستحيلات - رد الفائق ، وجمع الجسمين في مكان إذ كان لا ينسب الى
عجز ولا انتقاص ، فاذا مررت بعود بال ، فاعلم ان الله يستطيع ان يكسوه
أحضر كخضرة الحسام ، حتى يورق ورقا كعدد الرمال ، فتقرأ أن
القدرة تنال الممتنع في العقول ، ومالا تحتمله الابواب ؛ وبين هذين قوله
يقدر الله على المستحيلات ، فتشعر أنه يريد المستحيلات العقلية ؛ ويجهر
بتحكيم هذه القدرة في هذه المستحيلات العقلية (٤) . . ولكن كيف والمتكلمون
يقررون أن قدرة الله لا تتعلق بهذا المستحيل العقلي ، كما لا تتعلق بالواجب
لأن ذلك المستحيل - كما عرفت قريبا - ممتنع في العقل وجوده . ممتنع ثبوته ،

(١) الفصول والغايات ص ٢٧

(٢) الفصول والغايات ص ٤٧

(٣) المصدر السابق ص ١٤٧

(٤) ^{وعبر} من المستحيلات رد الفائق ، زمنا أو شيئا . وذكر جمع الجسمين في مكان وهما

كما ترى من القوانين الطبيعية العملية التي لا يحتمل العقل مخالفتها من مستحيلات عادية .

لا يحصل
فهي

ولا يقال أن الله قادر على كذا من المستحيلات عقلا وإلا كان عاجزا
كما يقول الشيخ « إذ كان لا ينسب إلى هجر ولا انتقاص .. فقوله في هذه
المواضع خطأ عند الكلاميين الدينيين ، بعد ما استسلم اليهم ^{نفي} نفى الأسباب
وتغير النواميس ، وكأن الشيخ بعدما أدخل بأصول التفلسف ، قد أدخل مع
ذلك بمقررات الدين .. وما أحسبه إلا في غمرة من النشوة الوجدانية ،
في عالم التقديس والتمجيد الذي ردد فيه تسبيحات الفصول والغايات ،
قد اندفع اندفاع المتغني ، لا يراعي حرمة ^{لاهوتية} المصطلحات ، ولا يلتزم تدقيق
المتفلسفين ، حتى ولو كانت فلسفتهم لاهوتية دينية . !! ما أحسبه من الناحية
النفسية إلا كذلك ومن هنا كان يذكر الممتنع في العقول ، وما لا تحتمله
الآليات ، ثم إذا به يقف باخضرار العود البالي ، وليس ذلك مما يمتنع في
المعقول ، ولا مما تحتمله ^{وليس} الآليات ؛ بل هو عادى قريب ، والشجر يخرج من
الشتاء باليا ، بل محترقا في البلاد التي يسقط فيها الجليد ، ثم إذا هو أخضر مزهر
ومثمر في الربيع .. !!

وكذلك يعطينا حديث أبي العلاء عن القدرة والمشية الإلهيتين ،
الفكرة عن إخلاله بالمنهج الفلسفي . ثم يقدم لنا الشاهد على ضعف ثقافته
الكلامية الإسلامية التي تتصل بالتفلسف اتصالا وثيقا .. ويرحم الله الشيخ
فقد كان وجدانيا أكثر مما كان شيئا آخر ...

وإذ ألمنا بما خاضت فيه الدوائر الجامعية ، من حديث القدرة الإلهية
والعقل الإنساني ، وحررنا معاني ما ساقه أبو العلاء من قول فيه ، فمن الوفاء
بالموضوع أن نسوق كلمة مجملة عن :

مسألة المعرفة والقدرة الإلهية

فنجيب عن السؤال التالى وهو : سهل حديث أبى العلاء ، عن العقل والقدرة ، حديث يمس مسألة المعرفة ، ويتصل برأيه فى عجز العقل أو اقتداره حتى يعمل به اضطرابه فى مسألة المعرفة ... ؟ .. وأنتك لتجد من تفصيل مامضى وجملة ، أن صاحبنا فيما قاله من هذا واعظ مستهو ، يمجد ويقدس ، وقد غمره عالم روحى دينى مسيطر . كما تجد أنه فيما أورده من قول عن العقل والقدرة ، لا يذكر من أمانيه لنفسه أو للناس ، ولا من مظاهر تصرف القدرة ، شيئاً عقلياً من مشكلات الحياة الإنسانية أو الكون ، بل يذكر من ذلك أشياء حسية مادية ، هى كما قلنا من القوانين الطبيعية العملية ، ومما يتوقف تصوره ووجوده معاً ، على المادة .. وليس هذا فى شئ من الصعوبة ، ولا هو من عقد الآلهيات أو الرياضيات وما أليها .. ألم تر أنه فيما قرأت من أمثلة يتحدث عن الأرض والبقاع ، أو عن السماء والأفلاك والكواكب ، أو عن النبات والحيوان ومظاهر حياتهما ، أو الحواس الإنسانية وأطوار الوجود .. !! وأنه حين صرح بما يمتنع فى العقول ، وما لا تحتمله الأبواب ، إنما مثل بالعود البالى وخضرته !! ومن هنا نستطيع القول فى طمأنينة ، مجيبين عن السؤال السابق صدر هذا الكلام : -

أن حديث العقل والقدرة الإلهية عند أبى العلاء ليس حديثاً عن مسألة المعرفة ، ولا هو متصل باقتدار العقل البشرى عليها أو عجزه عنها ؛ وإنما هو حديث استهوائى وعظى ، تسبيحى تمجيدى ، قد دلنا مع النظر فيما اتصل به من إنكاره تأثير الأسباب ، على أن صاحبنا المتفنن قد أدخل بالروح الفلسفية أخلاقاً قوياً ؛ كما دلنا على أنه قليل الميل إلى الجو العقلى الحكيم ، قليل

الحظ من العناية بذلك كله ، فلمض إلى ما كنا فيه من بيان سائر نواحي
إخلاله بالمنهج الفلسفي ، فنذكر لك وجهها :

ثالثا : أنه حينما جادل نثرا وفي السعة ، لم يفرق بين مواضع الدليل
العقلي ، ومواضع الدليل الشرعي ، وقد لفته إلى هذا الإخلال داعي الدعاة^(١)
وكان الشأن في المتفلسف ، أن يعكس فيلتزم الدليل العقلي دائما ، حتى فيما يكفي
فيه الدليل الشرعي . لا أن يستدل لمعقوله بالشرعيات ، ويخطئ مكان سوق
الدليل . . . !!

رابعا — أن أبا العلاء . قد رأيناه فيما مضى يترك الوفاء بالاستدلال
لأفكاره كما هو شأن المتفلسفين . . ثم هانحن أولا نزاه إذا ما استدلى في القليل
من الأحيان ، وهويتحدث نثرا ، فإنه يخل بالمنهج الفلسفي أخلا لا واضحا إذ
يدعي أدراك الحيوان مثلا فيحتج بقول شعراء العرب بذلك ، وأن مدافعة
النحل لمن يشتار العسل مظهر هذا الإدراك . . وما هي إلا معان شعرية ،
وخواطر وجدانية ، وملاحظ فنية ، لا ينتظمها تحر ولا ينقحها تدقيق ، ولن
يحتج بمثلها على لما يزعم صاحبنا ، أنه أنباء العقول الصحائح . . مع أن هذه النحل
تلسع الصبي الوادع الجميل في الروض ، وهو غير مشتار ولا مبتغى عسل للـ
ثم قدر مع هذا أن أبا العلاء حين يورد مثل هذه الحجج ، ويعدها أنباء العقول
الصحائح ، كان قد عاش بضعا وثمانين حجة ، فتم نضجه ؛ وكمل عقله ، ولم يعد

١ — ياقوت ، معجم الادباء ط هندية - ١ : ٢١٣ ، وعبارة داعي الدعاة في هذا هي :
وهذا الكلام شرعي وكانت النصبية للعقلية . . إذ أنهم إنما كانوا يتناقشون بمناسبة بيت
أبي العلاء : غيدوت مريض العقل والدين قالقني . . لتعلم أنباء العقول الصحائح . . وجاءه
الداعي يلتمس عنده أنباء العقول الصحائح

يفوت مثل هذا على مثله ، لو كان متفلسفا !!!

خامسا : أنه فيما يعترض به على الألهيات أو التشريعات في الاسلام والأديان الأخرى ، يتعلق بظواهر قريبة ، أو لمحات عاطفية صرفة ، حتى سهل على أشباه العلماء من مدوني أخباره ، أن يردوا على اعتراضاته هذه بسهولة ، وقسوة ، (٢) لأنه ينسى فيها أقرب الاعتبارات الاجتماعية أو العملية ، التي لا يصح أن تخفى على مفكر عادى ، بله متفلسف حكيم...!!

والحديث عن إخلال صاحبنا بالمنهج الفلسفى ، يذكرنا بما لمخناه قريبا من قلة حظه فى الثقافة الكلامية — انظر ص ١٢٠ — ثم مانلحه كذلك من الشواهد فى أمور كلامية وفقهية قد تناولها ١١ فهو فى الكلاميات مثلا يتحدث عن مرید الشر ويجعله فاعلا له ، ولا يلتفت لما اشتهر من ذلك فى البيئـة الكلامية وكثر قول القوم فيه ، من التفريق بين ارادة الشيء والامر به .

وهو فى الفقه يعد نفسه مجتهدا ، ويرفض التقليد فى كثير من أقواله كقوله :

وينفر عقلى مغضبا ، أن تركته سدى ، واتبعـت الشافعى ومالك

٢ — ١٣٢

ولكنه فى نثره ، يعرض لقياس صيد الحل على صيد الحرم ، وغير ذلك من الفقه ، كقياسه ترك المباح من اللحم على صلاة ما زاد عن المفروضة .. الخ فيخل بالمبادئ من أصول مثل هذا البحث الفقهى ، ويدل على عدم تضلع من الثقافة العقلية بعامة ؛ وليس هنا موضع القول المستوفى فى هذه المسائل

الكلامية والفقهية ، وإنما يكفيننا هذا الإمام لنقول : إنه ليس من الحق ،
المبالغة في تقدير قوة العقل المنطقي لابن العلاء ، كما أنه ليس من الصواب
عده متفلسفا ،

٨. ليس أبو العلاء رجلا ملأ بالآبحاث الفلسفية والمذاهب ، وليس قد
ضمن شعره هذه المذاهب والآبحاث ، أو شيئا منها ، أو ليس أبو العلاء
حكيمًا ، كأولئك الحكماء الذين عرفهم العرب في الجاهلية ، ورأوا في أشعارهم
ثمار تجارب ، وخلاصة فكر . وجل حقائق عملية .. ليس أبو العلاء شيئا
من ذلك أو ما يشبهه ، أما أن يكون فيلسوفا ، يتخذ البحث والتفكير
العقلي عملا له ، ويعتمد في ذلك على مقدرة منطقية عقلية فما أظن وما أظن ..
فليس على المنطق العقلي تعرض أقواله ، ويحكم بتناقضها ، ويلتمس لها التعليل
أنما أبو العلاء رجل وجداني ، بآديب ، متفنن ، أو هو واعظ وخطيب
أحيانا كما سترى .. وكل أولئك مما يراض بمنطق الوجدان والعاطفة ، لا بغيره
من منطق العقل والفكر فلنسأل على ضوء هذا التقدير .

لماذا تناقض أبو العلاء؟

- ١ -

لماذا تناقض الأديب المتفنن في نثره وشعره، هذا التناقض الشامل، الذي عم الدين والدنيا، والأدب والعلم والفلسفة، حينما يعرض لشيء منها؟ .
أن للقدماء عند نظرهم في الدينيات واضطراب الرجل فيها، تعليلا أدبي الأصل والمرجع، هو ماساقه الذهبي عن ابن سلفة أذ يقول: من عجب رأى
أبي العلاء، تركه تناول كل ما كول، لانفتت الأرض، شفقة يزعمه على
الحيوانات، حتى نسب إلى التبرهم، وأنه يرى رأى البراهمة، في أثبات الصانع،
وأنكار الرسل، وتحريم الحيوانات، وإيذائها، حتى الحيات، والعقارب،
ففي شعره ما يدل على غير هذا المذهب، وأن كان لا يستقر به قرار، ولا يبق
على قانون واحد، بل يجرى مع القافية إذا حصلت، كما تجي. لا كما يجب^(١)

تعليل باندفاع الشاعر ومتابعة القافية، دون تخرج، وقد يكون لهذه المتابعة
بعض التأثير، وبخاصة إذا ضم إليها ميل أبي العلاء للصنعة اللفظية، وأدارة
المعنى على التحسين اللفظي، وصنعة البديع الشكلية . .

ولكن مثل هذا التعليل لا يكفي ولا يقنع، بل هو أهون من أن
يوقف عنده، . . ذلك لأن الرجل يتناقض في النثر كما يتناقض في الشعر،
يتناقض بعض نثره بعضا، كما يتناقض بعض شعره بعضا، وكما يتناقض

نثره شعره ، وليس هذا النثر بالقليل ، بل هو فيما وصل إلينا ، يضاهي شعره ..
هل يعمل هذا كله بالخضوع للقافية ، أو الجريان معها إذا حصلت كما نجيء ؟ !
أحسب أن هذا تعليل لا يصلح حتى في متقابلات شعره وحدها ، لأن
صاحبنا ليس بالذى تغلبه القافية أو تضيق به ، وهو الذى التزم ما لا يلزم ،
ونظم الآلاف من الأبيات ، لم يتجمل فيها ضيق النفس ، ولا قلق القافية .. ثم
هو فى كل حال تعليل سطحي ، بمن يدرس رجلا كشاعرنا ، أقحم نفسه والفن
فى كل شئ ، ثم هو فى الوقت نفسه تعليل لا يستقيم فى متقابلات النثر ، وقد
رأيتها فيما سقنا من الشواهد الوافرة المستوفاة ، تساق متقابلات الشعر ،
وتجىء معها فى كل موضوع .. فلا يمكن الوقوف عند هذا التعليل ؛ بله
الاكتفاء به ، فى درس متفنن كبير كآبى العلاء ، وإنه لتعليل يكشف عن
سطحية الدراسة الأدبية ، وذهابها مع الظواهر المتبادرة القاصرة ، ذهابا لن
تيسر لنا معه تفهم شئ من هذا الأدب ، تفهما جديرا بأهميته الفنية ، وقيمه
الحوية . وهو - كما قلت وأقول دائما - فهم الأدب والأديب فى الألفاظ
والظواهر الخارجة التافهة الخادعة ، لافى الكيان النفسى ، والوجود الفنى !!

على أنما نجاوز هذا التعليل الذى يبدو أن القدماء أرادوا به أن يخففوا
التبعة فى الناحية الدينية ، أو أن يقولوا فيها شيئا ما يسكت الناقد ، أو يهون
وقع ما أثر عن آبى العلاء فى هذا الجانب الدينى ، الذى تتأثر به النفوس فى ذلك
العصر تأثرا قويا ، وتنتبه إليه أكثر مما تنتبه إلى غيره ، فتعنى به ، وتلتبس
فيه المعاذير ؛ وفى هذه السبيل يفصلون الجانب الاعتقادى من حياة الإنسان

عن سائر حياته النفسية، أو قل إنهم يفضلونه ويهتمون به أكثر من جوانب النفس الأخرى. على حين لا نرى نحن من الصواب في شيء ما، الفصل بين حياة الإنسان الاعتقادية والفنية - أو الوجدانية بعامة - وحياته العقلية الفكرية؛ لأنها كلها من الناحية النفسية متصلة متفاعلة ..

نجاوز هذا التعليل إلى تعليقات أخوى لم يذكرها القدماء في المعري بخاصة، بل ألماهم في أحاديثهم الأدبية، فأشاروا إلى ظواهر من التقابل والتخالف أو من عدم الصدق والتحري، في أقوال الأدباء... لنرى في تعليلهم لها، ما قد يصلح وجها لتفسير تقابل آراء صاحبنا ولا عجب في أن تلتبس مثل هذا من قول القدماء في صنيع الأدباء، لأن أبا العلاء - كما بدا مما قدمنا - ليس بالفيلسوف، الذي تفسر حياته وأقواله تفسيراً عملياً، عقلي المنطق، بل هو - فيما قدرنا - أديب متفنن ينبغي أن تفسر ظواهر حياته بمنطق العاطفة، ووحى الشعور أولاً.. ثم هو في كل حال قد خلف تراثاً أدبياً واسعاً عظيماً، وفيه وجدنا هذه المقابلات خفي من عده فيلسوفاً لاندوحة له عن تقدير هذه الظاهرة الأدبية فيه، وهي في كل حال، مما يسوغ لنا التماس أقوال الأدباء، في التناقض أو التقابل، لنعرض عليها حال صاحبنا، فلعلها تفسر ما بد لنا من أمره في تقرير الشيء وما يقابله، فنسوق هنا هذه الأسباب، وننظر في كفايتها واقتناعها لمن رام فهم أبا العلاء فمنها :-

١ - تتبع الأدباء للمعاني الأدبية، كلما كان مجال القول فيها ذاسعة، ولو لم يكن ما يقولونه فيها حقاً عندهم، أو رأياً لهم يلتزمونه، أو يدينون به والجاحظ وهو أمام في الصناعة الأدبية يلجظ هذه الظاهرة، من حال الأدباء ويصفها حين يتحدث في رسالة «المعلمين» عن قول الأدباء، فيما يدر كم من حرفة

الأدب ، وشؤمه على أهله، حتى يأتوا من ذلك بما ليس صحيحاً ولا واقعاً، ويقول الجاحظ في تعليل عملهم : « أن قولهم هذا ليس صحيحاً دائماً، وليس الذى يحمل أكثر الناس على هذا القول إلا وجدان المعانى والألفاظ، فانهم يكرهون أن يضيعوا باباً، من إظهار الظرف وفضل الشأن وهم عليه قادرون» (١) . . . هكذا يقول الجاحظ بياناً لهذه الحال، من صنيع الأدباء، وهو يبدو قريباً مما ساقه الذهبي وأوردناه آنفاً من جريان أبي العلاء مع القافية كما تجيء، لأنه جريان مع المعنى كما يجيء، ماداموا قادرين على القول فيه وما نحيل أن أبا العلاء قد يتأثر بشيء من ذلك أو يقع فيه، حين يعنى العناية الجادة بالألفاظ ونواحي تطابقها وتجانسها وما إلى ذلك، من حسن لفظي، وتزويق كلامي . فهو بلا مرأ لغوى غنى، يجد من مادته اللغوية وفراً من اللفظ، ويدير المعانى كثيراً على ما تستجيب له الألفاظ، وتضعف عليه، وليس يبعد أن يكون المعنى غير حقيقي ولا واقعي، ولا هو في مكان الراى عنده، ومنزلة المذهب، أو الفكرة، التي تنفعل بها النفس انفعال التأثير أو الاقتناع . ولا نقول هذا من الأمر استنتاجاً خصب، بل إنه هو نفسه قد تنبه إليه، وألم في « الغفران » بشيء يتصل بما وصفه الجاحظ من صنيع الأدباء، في قولهم ما لاحقيقة له، وسماء أبو العلاء « تحسين الكلام على مذهب الشعراء بما لم يفعل حقاً » (٢)، وعلى أساس هذا ينكر في الغفران تشيع ابن الرومي الذى يدعو له، ويستشهدون عليه بشعره؛ حتى يقول مانصه : —

(١) رسائل الجاحظ، على هامش الكامل للمبرد، ط الطوبى - ١ : ٢٥

(٢) رسالة الغفران ط هندية ص ٣٩

« ما أراه إلا على مذهب غيره من الشعراء » (١) .. بل هو يقرر في موضع آخر، من هذه الرسالة نفسها، فكرة عامة عن عدم دلالة منطق اللسان على اعتقاد الانسان . ويقول : « ... إذا رجع إلى الحق فنطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الانسان (٢) » .

فليس بعيداً أن يكون أبو العلاء قد تأثر بهذا بعض التأثير، فقال ما ليس صحيحاً في نفسه، ولا واقعاً في ذاته، أو قال ما لا يراه ولا يعتقده ثم خالفه بقول ما هو واقع صحيح، أو ما هو رأى معتقد، فخالف لاحقاً سابقه، وكلاهما ليس رأياً ولا اعتقاداً، مادام فيه المجال لتحسين الكلام كما يقول هو، أو مادام باباً توجد معانيه وألفاظه وهو عليه قادر كما يقول الجاحظ .. !

ليس ذلك كله بعيداً عن أن يقع؛ أو لعله قد وقع فعلاً في آثار أبي العلاء. ولكن هل يكفي وجهها لتعليل الظاهرة، التي شهدناها واضحة من تقابل آرائه هذا ما لا يسهل القول به فيما زى، وليس من الصواب الوقوف عنده، ونسيان أو تناسي اعتبارات واضحة في أقوال صاحبنا تفترق به عن أقوال الأدباء الآخرين منها: —

(١) الرسالة نفسها ص ١٦١

(٢) الرسالة أيضاً ص ١٣٤ .. ويعيننا هنا أن نشير إلى أن هذه الاعتبارات التي ذكرها الجاحظ وأبو العلاء، لا تؤثر في دلالة الفن على نفسية صاحبه؛ بل نقرر أنها قد تكون أقوى دلالة، إذ تتم عن طوايا يخفيها القائل، فلا يكشفها إلا حرصه على إخفائها وقوله غيرها، إذ تخرج فيها الدلائل على ما يخفى .. وإذا كان نطق اللسان — كما يقول المعري — لا ينبئ عن اعتقاد الانسان، أو لا يعطينا وجهته الاعتقادية، فإنه ليعطينا دائماً حالته النفسية، التي دفعته إلى إخفاء شيء، وتكلف قول غيره. تكلفنا دالاً مفيداً في فهم النفس.

أن هؤلاء الأدباء إنما يذهبون مع القول حين يتسع مجاله ، ويجدون ألفاظه ومعانيه ، في أشياء يفيدون منها فوائد مادية ، وتجسدى عليهم مغائم حيوية ، كشكوى حرفة الأدب وشؤمه ، لتدر عليهم العطايا ، وصاحبنا لم تتقابل آراؤه في مثل هذه السبيل ، ولا هو قد حرص على شيء منه ، أو جعل منه وسيلة إليه ، وما إكبارنا له اليوم إلا لأشياء ، من خيرها هذا المعنى

ومنها: أن هؤلاء الأدباء جميعاً ، أو كثرتهم الغالبة ، لم يتناولوا في أدبهم ما تناول أبو العلاء . من شئون الـكون والحياة الإنسانية ، يتأملها ويسجل خواطره فيها . بل تناولوا عبر هذا كله من المدح والثناء والهجاء وما إلى ذلك من استخدام عملي للفن ، فهم فيما يلون به من هذه الفنون منصرفو النفوس عن الانفعال ، أو الاعتقاد لما يقولون أو اعتباره رأياً ، أو مذهباً ، أو شيئاً يشبه هذا من قريب أو بعيد .. على حين لم يتناول أبو العلاء - غالباً - إلا أموراً بعيدة أ كبر البعد عن هذه الأجواء ، والنفوس بفطرتها منفصلة بها ، مهتمة بتعرفها ، متطلعة بغريزتها إلى تبينها ؛ ومثل هذا مما لا يكون الذهاب فيه مع المعاني الموجودة والألفاظ الميسرة ، إلا ذهاباً قليلاً الأثر إن وجد ، يسير الخطر إن تحقق ..

ومنها: أن هؤلاء الأدباء أيضاً ، لم يذهبوا مع الألفاظ الموجودة ، والمعاني الميسورة ، في الحديث عن مقررات ، هي عقائد مقدسة ، أو مسلمات سماوية ، قد قتل الناس بإنكارها بل بالاقتراب ، أو محاولة لقرب منها بما يمكن أن يؤول على أنه مساس بها ، وصاحبنا إنما مس تلك المقدسات ، وعرض لتلك المقررات وتقابلت فيها أقواله ، وجهرت بالمخالفة فيها آثاره ، فإن يكون جريانه فيها مع القول الميسور ، والمعنى الموجود ، إنما هو الاندفاع القوي عن تأثره في ، ينسبه

المتجوط، ويضيق عليه الحذر، ويصرفه عن المداورة...
فكذلك ليس من الحق، أن نعلل أو نفسر، تقابل آراء أبي العلاء بمثل
هذه العادات الأدبية، التي يتسمح بها الأدباء في أشياء غير ما وجه صاحبنا إليه
فيه، من مشكلات ومعتقدات، لها حرمتها، ولها أهميتها..

ومن الأسباب العامة التي ألم بها الأقدمون، واصفين أو مفسرين
تقابل أقوال الأدباء: —

٢ — ماساد في بعض العصور، بتأثير عوامل دينية أو اجتماعية مختلفة
جعلت المتأدبين يحرصون على كسب المقدرة الكلامية، واللباقة الاستهوائية
بحيث يحتاج الأديب للشئ وضده، ويحسن الشئ حيناً ويقبحه حيناً، فتكون
له الأقوال المتقابلة بل المتنافرة، ومن هذا ما جاءنا من قولهم، في المحاسن
والإضداد، أو المحاسن والمساوىء، كالكتاب المنسوب إلى الجاحظ، بالعنوان
الأول، وكتاب البيهقي - ق ٥ هـ - بالعنوان الثاني، وكلاهما مطبوع متداول
وهي ظاهرة أدبية، عرضت لها في بحثي «منهج تفكير الجاحظ» (١)
فبينت لم كان الأدباء لا يعدون مثل هذا كذباً؟ وكيف أثر هذا على نظرهم
في تعريف الصدق والكذب، الذي تعرضت له الكتب البلاغية، تأثراً بهذه
الصناعة الأدبية، ومروجاتها المختلفة إذ ذاك، كما يبينه البحث في تاريخ
البلاغة العربية

(١) بحث أقيمت خلاصته في أسبوع الجاحظ الذي نظمتها كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول
بالجمعية الجغرافية الملكية، ونشرت خلاصته السياسة الأسبوعية

وإذا ما أشرنا هنا إلى هذه المقدرة الأدبية على الاستهواء، واللباقة الخطابية في التأثير، شعرنا ونحن نتفهم أبا العلاء بضرورة الوقوف لحظة، والتمهل حيناً، لنخددق في جانب من شخصية صاحبنا هو :

شخصية أبي العلاء الواعظ

إذ تبدو للناظر في آثاره التي جاءتنا، أو التي سيق إلينا خبرها ووصفها - وإن لم نرها - شخصية خطابية، قد عنيت بالخطابة الدينية الواعظة المستهوية، بل كادت عنايتها بهذه الناحية من الخطابة الدينية، تستأثر بالثمار الأدبية كلها لفن أبي العلاء، وليس عجيباً أن نتحدث عن شخصية الواعظ، في رجل قد اتهم في دينه، وجرت كلمات الأجيال المختلفة فيه بلون مامن هذا الاتهام؛ وشغل الناس من نفسه، بتلك الناحية دون غيرها، أو أكثر من غيرها، ليس عجيباً أن نتحدث عن شخصية الواعظ في رجل هذا شأنه، لأن مادة هذا الحديث، وعناصر تلك الحقيقة في أيدينا، مهما يهمل القدماء أو المحدثون التعرض لها. فهذا أبو العلاء يقول عن نفسه في التأليف: اجتمعت على أن أتوفر على تسبيح الله وتمجيده إلى أن اضطرر إلى غير ذلك فأملت أشياء^(١).. فكان التأليف المحبب له، أو الذي اختار أن يقف قلبه عليه، هو التسبيح والتمجيد لله، وهو مادعونه وعظا أو خطابة دينية لا لهذا القول فحسب بل لأن حريدة كتبه، كما ساقها المؤرخون ووصفوها، تفسر ما يعنيه بالتسبيح والتمجيد. فكتاب الفصول والغايات، وهو - كما وصفوا - سبعة أجزاء في مائة (١٠٠) كراسة إنما هو في المواعظ.. وفي القدر الذي نشر منه مثل

(١) ياقوت - معجم الادباء ١ : ١٨٠ - ط أولى

صادق لهذا الوعظ الاستهوائي، الذي أشرنا آنفاً، إلى أن أبا العلاء يفقد فيه سمعة الباحث والمفكر ، ويلبس رداء الوعاظ ، فيصدر عنه ما سمعنا من حديث عن قدرة الله ، ذلك الحديث الذي ينفي فيه الأسباب ، ويجيز للقدرة تناول المستحيلات ، ويضطرب تقديره للمستحيلات، العقلية والعملية على ما أشرنا إليه في موضعه - أنظر ص ١١٤ وما بعدها - . . وكتابه الذي يسمونه «الأيك والغصون» ويذكرون أنه اثنان وتسعون جزءاً - وقد يزيدونه على ذلك - في ألف ومائتي كراسة (١٢٠٠)، إنما هو في العظاات وذم الدنيا. وكتاب «تضمين الآي» في أربعائة (٤٠٠) كراسة، إنما السبب في تأليفه أن بعض الأمراء سأله أن يؤلف كتاباً برسمه ، ولم يؤثر أن يؤلف في غير العظاات ، والحث على تقوى الله ، فأملى هذا الكتاب . . وكتابه سيف الخطبة ، إنما هو ديوان خطب منبرية . يشتمل على خطب السنة ، وفيه خطب للجمع، والعيد، والخسوف والكسوف والاستسقاء . . إلخ ، وهو جزءان، في أربعين (٤٠) كراسة . . وكتابه «تاج الحرة» في عظاات النساء خاصة ، نحو أربعائة كراسة (٤٠٠) ؛ كما ذكروا له في ذلك ، كتاب «رقعة الواعظ» . وكتاب «سجع الحائم» . . تكلم فيه على ألسن الحائم في العظة ؛ وهو أربعة أجزاء في ثلاثين كراسة (٣٠) . وكتابه «المواعظ الست» . نحو خمس عشرة كراسة (١٥)، وكتابه السجعات العشر «على كل حرف من المعجم عشر سجعات . كما أن له رسالة على لسان ملك الموت (١) . ونحو ذلك من آثار خطابية وعظية الروح . وهي مع أقواله في التأليف ، مما يكفي للحكم بأن له شخصية واعظة ، قد عنيت بالخطابة الدينية

(١) الحديث عن هذه المؤلفات ووصفها معتمد على مافي معجم الادباء لياقوت

عناية؛ لا يقبل من الباحث إهمال دلالتها على خصائص فن الرجل وأدبه .
حين ننظر — كما هو المنهج السديد — في هذا الفن وذلك الأدب . على أنه
وحدة متماسكة ، وكل متصل الجوانب ..



فأبو العلاء . قد عنى بالخطابة الدينية هذه العناية الواضحة ؛ وهي إنما
تقوم على المقدرة الاستهوائية، والبراعة الخلابية، التي تستطيع تزيين الشيء والتجديد
فيه ، وتقبيحه والتنفير منه . وهو ضرب من القول في المحاسن والأضداد
أو المحاسن والمساوى . الذى عرضنا لذكره ، كي نعرض عليه تقابل آراء
أبي العلاء ، ونلتبس فيه تعليلاً كافياً لها ، ومن أجله أشرنا تلك الإشارة
العارضة إلى شخصية الواعظ في صاحبنا .. وليس بعيداً أن تكون معاناة
هذا الأدب الخطابي، بعد اتجاه نفس الرجل إليه ، واجتهاده في قصر نفسه عليه
مالم يضطر إلى غيره اضطراراً ، ليس بعيداً أن يكون ذلك كله سبباً لشيء من القول
المتقابل، أو المتغاي، الذى نجد في ثبت المؤلفات نفسه شاهداً عليه ، إن نسينا
ما سبق من شواهد هذا التقابل على كثرته . وما نجده من التقابل في ثبت
المؤلفات هو ما ذكرناه في جريدة تلك المؤلفات، من أن أبا العلاء ألف كتاباً
اسمه « شرف السيف » لرجل بدمشق ، كان يوجه إليه بالسلام ، ويحفى
المسألة عنه ، فأراد جزاءه على ما فعل ، فألف له هذا الكتاب ..

وهل تراه قال في شرف السيف ما هو من وادى تلك العظات المسبحات
لله الممجدا له ، الزاهدة في الدنيا المنفرة منها ، المرغبة في الآخرة الداعية إليها .
على نحو ما رآه — على الأقل — في كتابه الفصول والغايات؟؟ لا بد أنه لم يقل

في شرف السيف إلا ما يختلف عن تلك النزعة الواعظة، والروح المستضعفة، وكذلك نجد حتى في مؤلفاته شواهد هذا الاختلاف والتقابل، الذي يشبه القول في حسن الشيء وقبحه، على نحو ما عرف من هذا الصنف في الكلام...!! ولعلنا لا نبعد أبداً إذا ما قلنا أن هذه الروح الخطابية، متصلة الأثر بالشعر العلائقي في الموت وفناء الدنيا وكرامتها، والخط من شأنها، وتزويد الناس فيها.. ولوم الناس وذمهم، ذلك اللوم القاذف الساب، الذي ظللنا نسمع الكثير منه في الخطب المنبرية لعهد قريب، لما يتغير تماماً في بعض جهات مصر بعد.. ودارس أبي العلاء يجد ريح هذا في اللزوميات غير قليل. ويستطيع القول بأنه أثر لتلك الشخصية الواعظة فيه

عل لنا حين فصل بين النثر الواعظ والشعر الزاهد للرجل، ونربط بين الخطيب الواعظ فيه، والشاعر الناقد، ونقدر أثر الطابع الخطابى في ذلك كله وندخله تحت باب القول في المحاسن والاضداد من صناعة الأدب، دون أن يكون ذلك كذبا عندهم، أو تصويراً لاعتقادهم.. إلخ، حين نفعل ذلك كله نسأل بعده: أتكفى هذه الاعتبارات لتعليل تقابل أقوال أبي العلاء ذلك التقابل الذي وصفناه؟

وقبل أن نجيب القارىء عن هذا السؤال، أو قبل أن يتجه هو للإجابة عنه، نضع أمامه معاني يحذر به تقديرها، قبل هذه الإجابة، منها: أن هذا الباب من القول في المحاسن والاضداد، لا يبعد كثيراً عما قبله، بل هو من واديه، في تحسين الكلام وإظهار للمقدرة القولية في القائل، دون أن يعد ذلك القول

منه رأيا أو عقيدة ، بل دون أن يظن ذلك فيه ، وأبو العلاء لم يؤلف كتبه
النثرية ، أو الشعرية لمثل هذا الغرض من المراتة القواية ، أولتقديم المادة
الأدبية لطلابها ، على نحو ما فعل الجاحظ مثلا في كتاب المحاسن والاضداد
أو فعل غيره بعده .

ومنها : أن أبا العلاء كان جادا ، فيما يعرض له من تحسين أو تقييح ، بل كان
جده يبدو في ألم وسخط ، أو تحرق وغيط ، أو تمرن وتوسل ، ينم على ان
صاحبنا لا يقول مثل هذه الأقوال ، بيانا للمقدرة الأدبية والقوة البيانية
فحسب ، وإن كان يستعمل في ذلك ثروته اللغوية ، ومادته الأدبية ، من رواية
وحفظ ، بل إنه إنما يتخذ تلك المقدرة وسيلة للتقييح أو التحسين ، عن شعور
أو بعبارة أدق ، إنما يتخذ ذخيره اللغوية ، وثقافته الأدبية ، وسيلة للتعبير
الدقيق عن خواطر نفسية وتأملات فنية ، وخلجات داخلية ، كانت تزخر بها
نفسه ويحش بها صدره ، دون أن يعرض لما يعلنه أولئك الأدباء من تناول
الشيء وضده ، تقننا أدبيا ، ومرانة قلبية لا غير (١) .

ومنها : أن أصحاب هذه الصنعة ، في المحاسن والمساوىء ، إنما يعرضون
لأشياء من مألوف الحياة وحطام الدنيا . كمحاسن الجوارى وضد ذلك .
ومحاسن الوصائف والمغنيات ، ومحاسن الهدايا وضد ذلك . ومحاسن فلان
وفلان .. إلى مقابح ومفاسق أخرى من لذائذ الحياة وضد ذلك . على نحو

(١) نحب صونا هنا لسلامة الفكرة النفسية ، في فهم الأدباء أن ننبه القارىء إلى أن هذه الكتابة
في المحاسن والاضداد ، حتى عند ما تكون للرياضة الأدبية ، لا تتجرد من الدلالة على نفسية
الكاتب من بعيد أو قريب ، بل هي تظل سبيلا لتلك الدلالة لا يصح نسيانها .. ويان هذا مما
اتولاه في غير ذلك المقام

ماتراه في كتبهم ، وأبو العلاء إنما يعنى بغير ذلك من مشكلات الوجود والحياة ، على ما أشرنا إليه في النوع السابق من تحسين الكلام فإذا ما كانت هذه الجرأة الأدبية في صنعة الخطابة ، قد أثرت في فن أبي العلاء ، فإن هذه المقدرة لا تكفى سبباً لتعليل تقابل أقواله ، فيما تقابلت فيه من دقيق جليل وهام عظيم ، ليس مما يعنى الأدباء به ، ويكبدون له في أدبهم وفهمهم ..

وإذا كانت النزعة النفسية ، للتسييح والوعظ قد أثرت في شعر الزهد ودم الدنيا ، ولوم الناس من اللزوميات ، فإن غير ذلك من حركات النفس قد أثر في حب الدنيا ، وتمجيد القوة ، ونسيان الزهد ، في ذلك الشعر والنثر ، الذى رأينا شواهد^هه آنفاً فيما سبق من الصورة غير المتعارفة لأبي العلاء

ومن كل أولئك لايسهل على الباحث ، أن يجد في تلك الأسباب التى أشار إليها الأدباء ، في تقابل الآراء ، ما يفسر صنيع أبي العلاء ، الذى جرى في غير مجراهم ، وعرض لغير ما عرضوا له ، بروح غير روحهم ، وتناول مخالف لتناولهم ولن يكفى بعض تلك الأسباب مفرداً ، ولا تكفى تلك الأسباب كلها مجتمعة ، تعليلاً لتلك الظاهرة ، التى شملت فن الرجل ، وسادت فيه سيادة واضحة ، ووجب أذن على الدارس الدقيق أن يلتمس سبباً وراء ذلك كله ، وهذا ما وجدنا أن اهدى السبيل إليه ، هو الاستعانة بالنفسيات ، والوصل بين الأدب وأدبه ، والاستعانة بشخصيته وما عرف من حالها ، في فهمه وتذوقه ^{بهم} وفهم ما غمض أو استبهم منه . وذلك هو الدرس النفسى ، الذى طمعنا في أن نقدم منه مثالا في فهم أبي العلاء .. على أنا حفظا لما بين المعانى من التداعى ، واستيفاء للفكرة ، عن هذا التقابل ، في آراء الرجل ، نسوق كلمة عن :

تناقض أبي العلاء عند المحدثين (١)

وتستطيع الاطمئنان إلى أنهم لم يولوا هذه المسألة عناية كافية بل أهملوها وهونوا من شأنها ، لأنهم جميعا — فيما أعرف — يفلسفون الرجل ، ويعجبهم من تفلسفه، هذا الاهتمام بالمظاهر العملية للإنسان في حياته الخاصة، ويقدرّون : أن ما يتصل بالدين من شعر أبي العلاء ليس شيئا بالقياس إلى الفلسفة العلائية، التي تناولت أطراف العلم الأنساني، وبحث عن المظاهر العملية للإنسان في حياته الخاصة (٢) . وبعد أن يفلسفوه ويحققوا فيه معنى الفيلسوف ، وهو الباحث الملائم بين حياته وعمله — على ما ناقشناه سابقا ، في ص — يبحثون عن الاصل النظري له ، ويقررون فيه ما يقررون — مما اقشناه أولا في بحثنا عن مسألة المعرفة عنده — ص ٩٩ الى ص ١٠٣ — فينتهون إلى تقرير انه : مهما يكن من شيء فإن لأبي العلاء آراء ثابتة ، قد استقر عليها حياته كلها ، لم ينكرها ولم يشك فيها (٣) ؛ فهم بذلك كله يكبرون عنايته بالمظاهر العملية للإنسان في حياته ، بعد تقرير موافقة عمله في الحياة لبحثه الفلسفي ، ويرون له بعد ذلك آراء ثابتة ، لعلها لا تكون عندهم أكثر مما تكون وأنبت ما تكون ^{والله} في المظاهر العملية للإنسان في حياته ، أذ تقضى بها

(١) من أطراف ما قرأت في ذلك حديثا، ما نشر في مجلة الاديب — عدد ايلول ١٩٤٤ ص ٦١ — ان الاستاذ عبد الله العلايلي قال لهم : أتى عن شدة الحاحي بان أقم على موضع تناقض فيه أبو العلاء فلم اعثر إلا بوحدة فكر وانسجام رأي . ولعل الاستاذ يرجع إلى ما سبق من أقوال لأبي العلاء متقابلة اول هذا البحث .

٢ — الدكتور طه حسين بك — ذكرى أبي العلاء ط أولى ص ٣٢٧

٣ — المصدر السابق ص ٣٤٥

ضرورة مطابقة سلوك الفيلسوف لأصوله الفلسفية ، ويزيد ذلك عند أبي العلاء ،
ماله من عناية خاصة بتلك المظاهر العملية للإنسان في حياته - على ما يقولون -
والقارىء يذكر أننا لم نختر من فلسفة أبي العلاء التي لم يثبت فيها على رأى ، والتي
تقابل فيها آراؤه ذلك التقابل الجلى الواضح ، لم نختر شاهداً لذلك التقابل
ألا هاتيك المظاهر العملية للإنسان في حياته الخاصة ، ومع مجتمعه الصغير
وهو الأسرة ، ومجتمعه الكبير وهو الأمة - على ما مر في الصفحات من ١٠ إلى ٨٩ -
ومن كل أولئك يتضح ما نشير إليه ، من أهمال المحدثين لهذا التناقض
في آراء الرجل ، أو ما آثرنا أخيراً أن نعبر عنه بكلمة التقابل ، تاركين
التناقض والنقيض ، للجو الفلسفى ، جو هذه الاصطلاحات ، إذ ارتحنا إلى
أن صاحبنا ليس فيلسوفاً

على أن من المحدثين من التفت إلى هذا التقابل التفاتاً يسيراً كالاستاذ
الميمنى ، وقد ذكر فى ذلك كلمة عن وجود جانبين لشيء واحد ، تكون له
حالة خاصة بكل واحد منهما ، وأن هذا سبب ما تناقض فيه قول أبى العلاء ،
وناقشنا هذه الكلمة ، وبيننا عدم وضوحها ، وعدم صلاحيتها لشيء من
التعليل ، وأن الفكرة التى فيها ليست مما يقرره أبو العلاء ، بأطلاقه القول فى
الشيء الواحد - انظر هامش ص ٩٨

ولعله منذ كثر القول فى هذا التناقض ، بعد المحاضرة بهذا الرأى فى
أبى العلاء ، ومناقشته فى بعض المجلات الادبية المصرية ، ونشر طرف يسير
منه (١) ، كانت للمحدثين عناية ما بهذا التناقض ، فقرأت قولاً مجملًا لبعضهم (٢) ،

١ - نشر فى مجلة الاديب بحلب فى عدما الخاص بابى العلاء سنة ١٩٤٤

٢ - فى مجلة الاديب عدد تموز ١٩٤٤ ص ٥٦ ، لحضرة الاستاذ محمد يحيى الهاشمى

يشير فيه إلى أن كثيرا من المتناقضات التي نزعناها في حياة المعري آتية من تطور حياته الفكرية فكثيرا ما ناقض الشاعر في دور الكهولة والشيخوخة ما قاله في دور الفتوة والشباب وهذه الناحية قل من راعاها ، .. وهو أجمال لا يمكن من مناقشة صاحب هذا القول في سعة ، ولا هو مؤيد بشاهد أو دليل على تأثر هذا الاختلاف بتطور الحياة الفكرية ، كهولة وشيخوخة وشبابا . وبحسبي هنا أن أقول : أنه مادام تطور الحياة يؤثر في آراء الرجل ، فقد وجب أن تكون دراستنا له منتهية بنا إلى مصور مختلف الألوان ، يمثل تغير هذه الآراء وتطورها ، وألا نطلق القول بتفلسفه إطلاقا ، وألا نقرر أن حياته كانت وفق مذهب فلسفي وعلى أصل ثابت .. الخ ... على أنه لم يخف أثر اختلاف أدوار الحياة على أحد ، وقد حاولنا وحاول غيرنا كثيرا ، أن ترتب آثار أبي العلاء ترتيبا زمنيا تفصيليا دقيقا ، فلم يتيسر ذلك ، وهو غير متيسر تماما مادامت تلك الفجوات في آثاره فارغة بضيايع الضائع ، بل نحن بعد العثور عليها جميعا ، لانتهدي لذلك الترتيب الزمني المحدود المفصل ، لضيايع معاملته .. لكن قد استطاعت الدراسة الأدبية إلى حد كبير ، أن ترتب لموجود من آثاره ، ترتيبا عاما ، يعين ما كان منها في زمن الشباب ، وما كان منها بعد ذلك ، وبخاصة توزيع هذه الآثار على العهدين الواضحين ، اللذين ذكرهما المعري ، وميزهما البحث في حياته ، على ما سنشير إليه فيما يلي وهذا الترتيب لم يؤثر في مسألة تقابل آراء الرجل ، لأننا نجد المتقابلات في كل عهد من عهوده شبابا وكهولة وشيخوخة ، بل نجد المتقابلات في المكان الواحد ، وفي القطعة الواحدة ، كما أنك تجد المتقابلات فيما لا يتغير فيه الرأي ، لأنه أصل ثابت للتفكير ، كمسألة المعرفة والمذهب فيها على ما مر ..

ولو قد سمعنا شيئا من التفصيل ، لأثر الزمن ، في تناقض الرجل عند صاحب
الإشارة السابقة لناقشناه ولكننا نقول رغم هذا الأجمال : هل التفلسف أن
يتترك الرجل آراء مختلطة ضائعة المعالم ، لاندري متى وكيف قال بها !!
وهل التفلسف أن يختلف الرأي اختلافا بينا مطلقا في الأصول
والأسس !!؟؟ وهل .. وهل !!.

* * *

وحيث قرأت تلك الإشارة عن التناقض ، وتأثره بتطور حياة المعري ، قرأت
خبر محاولة في التوفيق بين متناقضات أبي العلاء ، ولم يتهيبا لي أن أطلع على
شيء من تفصيلها ... فإن يكن هذا التوفيق عقليا منطقيا ، فقد عدنا به إلى
دعوى فلسفة الرجل بعد ماضى من قول فيها ، وبعد ما أنسنا بطلانها ، وقد
خلف صاحبنا في كل حال آثارا فنية الطابع ، فنية الموضوعات ، فنية التناول ،
فلعله ليس من الحق والصواب ، أن نحاول رد تناقضها ، والتوفيق بين متخالفها
توفيقا نظريا منطقيا عقليا .. وأما أن كان هذا التوفيق نفسيا فنيا فأنا
لنرجوه ونتمنى أن يستطاع — وإن لم يكن يعنى أصحاب الفن ، هذا التوفيق
بين متناقضات متفنن ، لأنهم لا يعنون بأن يقيموا قضايا صحيحة على النظر ،
ولا قياسات سليمة المقدمات ، مؤدية إلى النتائج — وإنما يعنى أصحاب الفن بأن
يدركوا ، من نفسية المتفنن وشخصيته ، ما أدى به إلى هذا التناقض أو التقابل ،
ليفهموا بذلك مراميه ، ويدركوا خواطره ، وهذا البحث النفسى عن سر
التقابل فى معانى أبى العلاء وتأملاته الفنية هو ما قصدنا إليه ، ورجونا أن
نقيمه على وجه صحيح من أمر هذه النفس الجليلة . : فهما لفتها ، وتمثالا له ..
والآن . . . قد انصرفنا عن فلسفة أبى العلاء ، لما أوردنا قبل ذلك من

أوجه واطمأننا إلى تفننه ، ونظرنا إلى آرائه على أنها تأملات فنية ، ولحنا فيه ظاهرة التقابل بادية غالبية ، بل عامة أن شئت ؛ فما بنا بعد استبعاد تفلسفه أن نسمى هذا تناقضا أو تلتمس له تفسيراً عقلياً . . . فلما رحنا نلتمس أسباب التقابل فيما ذكره القدامى من الأدباء ، لم نجد من هذه الأسباب ما يرتاح إليه ، الناظر المتعمق في أدب الرجل وترائه الجميل ، سواء في ذلك ما عللوا به تناقض أبي العلاء نفسه - انظر ص ١٢٥ و ٩٥ - أو ما أوردوه في التقابل مطلقاً - انظر ص ١٢٧ وما بعدها - فحق علينا بعد ذلك كله أن نلتمس السبيل الميسرة ، والطريق المؤدية ، إلى هذا التعليل والتبيين ، وإنما هي - فيما أقدر - الفهم النفسى للاديب وأدبه ، فهما ينتفع فيه بما عرفت الحياة العلمية ، عن قوانا النفسية ونواميسها.. وأول ما تقضى به هذه الرغبة في الفهم النفسى هو تقدير :

حال أبي العلاء الخاصة

فنعنى فعنى بها تلك الحال الجسمية ، لما بين الجسم والنفس من صلة وثقى ، لا محل للاطالة في الكلام عنها ؛ وكذلك نرجو أن نفهم شخصيته النفسية فهما عاماً مجملًا ، بما عرف من خبر واصف لحاله الجسمية المادية ، فنتبين أثرها النفسى ، عليه بصفة عامة ، وفكرة جامعة ، نظفر منها بما يكشف عن معانيه ومرامييه ، فنفهم آثاره الأدبية بما وراء الفاظها ، وما بين سطورها ، لا بكلماتها وجمالها فحسب . . ثم نمضى بما يتكشف لنا من سرائر هذا الفن ، فنكمل صورة الشخصية النفسية للاديب المدروس . . . وكذلك نفهم الأدب بشخصية صاحبه ، ونستكمل فهم شخصية الاديب بفهم الأدب ، في تبادل متسق لا دور فيه ولا اضطراب

ولأبى العلاء بخاصة من حاله الجسمية ، ما يؤذن بنفسية جديدة بالدرس،

مسعفة في الوقت نفسه على الفهم ، يتجلى فيها بوضوح ما أشرنا اليه ، من تأثير
الجسم في النفس ، وتأثيرها بحالته . . ولا حاجة بنا إلى الإطالة في بيان ما لهذا
الفهم النفسى من فضل الابتناء على أصول مقررة ، ومعانى محفقة ، لا على فروض
واحتمالات ، أو تخريصات وادعاءات ، أو وقوف عند نقول ، يعتبرها ما يعترى
الخبر من آفات ، فهو فهم أكثر واقعية ، وأدنى إلى الصدق من ظنون متخربين
أو متعصبين لحب أو كره ، غافلين عن نواميس الحياة للنفس البشرية ؛ إذ لم
تكن تسعفهم معارف عهدهم على التنبيه لها . . وهو الفهم الذى يوائم الكرامة
العقلية لهذا العصر ، ويرد العمل الأدبى إلى الضبط الصحيح ، والدقة العميقة

أيف أبو العلاء ، وهو حدث ، تلك الآفة القاسية ، التى ألم منها ألما شديدا ،
ما زال يشكوه حتى آخر عام من عمره ، أذ يقول لداعى الدعاة « وبصرى عن
الابصار ثقيل ، قضى على وأنا ابن أربع ، ألا أفرق بين البازل والريع » (١)
كما شكها سائر حياته ، شيكوى تعتبر وحدها فنا بذاته ، يؤثر بالدرس المفرد
فهو يقول للدنيا :

وأوقدت لى نار الظلام ، فلم أجد سناك بطرفى ، بل سنانك فى ضبنى (٢)

٣٠٤ - ٢

كما يقول للناس :

وجوهكم كلف ، وأفواهكم عدى وأكبادكم سود ، وأعينكم زرق

١ - ياقوت : معجم الادباء ١ : ١٩٨ ط أوفى

٢ - بالكسر ما بين الكشح والابط

ومابى طرق للسير ولا السرى لأنى ضرير ، لاتضىء لى الطرق

٢ - ١٠٣

وليلته بأفته صارت ثلاث ليال متراكبة ، وهو يألم لآثار الآفة وما تحدثه من ضعف ، إذ تحبسه عن المنى والרגائب

حبستك أقدار ، ذوتك عن المنى فضى الصحاب ، وأنت ثاو حابس

٢ - ٢٥

كما يقول ناثرا .. والحوج ، على ذات عوج ، وهى على سواى سهلة ، كالأنفاس ولو شاء الخالق لجعلنى مثل الناس - ف ٢٧١ - . وهى تلزمه الحاجة إلى الناس ، فهو المستطيع بغيره ، كما يقول فى الغفران - ص ٢٠٦ - . وهو الذى يعد العصا يسارا :

غدا العميان فى شرق وغرب يعدون العصى من اليسار

قى فوارس ، ما كان منهم فوارس رحرحان ولا النصار (١)

١ : ٢٢٨

* * *

عصا فى يد الأعمى ، يروم بها الهدى أبرله من كل خدن وصاحب

١ : ٩٦

وأذ يعد أرشاده إلى الطريق صدقة :

بأفهامه

تصدق على الأعمى بأخذ يمينه لتمهيديه ، وأمن بأفهامك الصما

٢ - ٢٤٠

وأذ يلتمس لأمثاله الرحمة من الناس إذا مامروا بهم :

أذا مراعى فارحموه، وأيقنوا وأن لم تسكنوا، أن كلكمو أعمى

٢٤٢ - ٢

ويشكو في لوعة نفوسا لاتحن على أقدامهم العائرة :

نشكو نفوسا، ألينا غير محسنة ما أن تحن على أقدامنا العثر

٣١٤ - ١

ويغيظه بخل الناس عليهم، حتى بغوا الحياة من الموتى بالقراءة على قبورهم :

عميانكم قرأت على أجداثكم وأتوا لكم بالبر من آتاكمو

أحيائكم بخلت عليهم بالندى فبغوه بالفرقان من موتاكمو

٢٣٨ - ٢

وتقرؤه في قطعة عنيفة قد جمع فيها كل آلامه، ومظاهر فقدانه من

آفته، إلى ضياع لذة الدنيا، إلى البعد عن الخمر وتسريتها عن النفس، ففقد الشباب

الذى لا عوض له، والحرمان من الحب، فهو يقول :

عمى العين، يتلوه عمى الدين والهدى فليلى القصوى ثلاث ليالى

وما أزممت نفسى البنان، على التى إذا أزممت، عضت بشوك سيال

ولا قصرت لى أم ليلى بشرها حنادس أوقات على طيال

أذاما اجتمعنا، هاجت الحزن ألفة محدثة عن جمعنا بزيال

لما الله غارات السنين فأنها مبدلة ظلماتها بريال

وما سرنى رب الخيال بشخصه فيطلب منى النوم طيف خيال

وهو أن أرزاء الحوادث أننى وحيد أعانيها بغير عيال

وهى شكوى باكية عدم النسل أيضا.. وإنك لترهب زفراته المحرقة أذيقول

بعد ذلك كله :

فدعني، وأهوالاً أمارس ضنكم وإياك غنى، لا تقف بحياي

٢ - ١٨٧، ٨٨

هذه الآفة بينة الأثر في الحياة، ما يحتاج أمرها إلى استشهاد، ولكنك
تسمع هذا من أبي العلاء لتدرك وقعها عليه، ومدى عنائه بها، فتقدر
تأثيرها في حياته، وفعلها في نفسه

أبو العلاء رجل كالناس، خاضع للنواميس الحيوية، كما يقول هو:
ودنياك سارت بالأنام مغدة فلا فرق فيها بين سيرى وسيركا

٢ - ١٣١

ويقول:

خلقت من الدنيا وعشت كأهلها أجد كما جدوا، وألها كما ألها

٢ - ٣٣٥

فهو متأثر بآفته هذا التأثير الحاد، ولا سيما حين يقدر دارسه أنه خرج
إلى الدنيا بوراثنة طامحة، من أب قد نمته أسرة عرفت بالعلم وتولى القضاء،
وأم من حلب التي يقول أبو العلاء عن نسائها في الغفران: «فطالما كن أجود
غرائز من رجالهن، وربما كان في نساء حلب شوارع» - ص ٢٠٥ - فهي
وراثنة كريمة، دافعة إلى ابتغاء الرفعة، والآفة كالجحة معوقة، فالشعور بها حاد
ثائر.. ومن هنا يبدأ فهم نفسية أبي العلاء، بالنواميس المقررة في نفوس الناس

أراد أبو العلاء، مع هذه الوراثة، وهاتيك الآفة، أن يستعويض عما فاتته،

ويكمل ما ناقصه، خضوعاً للناموس النفسى (١) فى ذلك، حين يكون العيب الطبيعى سبباً فى تقوية الروح المعنوية، وعاملاً فى بروز الشخصية رغبة فى التعادل النفسى، وسعيًا الى التكافؤ، وطلباً للتويض عن النقص. وهذا هو ما يشير اليه أحد النفسيين المحدثين حين يقول: إن الحضارة كلها نتيجة المساعى التى تبذل للتغلب على الشعور بالنقص لئلا ينشأ عن عاهة تلحق الجسد ... فكان الدور الأول من حياته، إلى سن الثلاثين - على ما يحدده هو فيما سيجيء - منفعلاً بهذا الشعور، فاعتزم اعتزاماً قوياً، - على ما قال فى الفصول - أن يفر من القدر. « ولقد فررت من القدر » ف ٢٨٣ قد فررت من قدر الله - ف ٢٥١ - ... ولذلك تجاهل الواقع الجسمى المسمى فيه؛ وراح يطلب الدنيا فى جد وتصميم، معتزماً أن يساوى الآخرين فيها، فكان منه فى هذا الدور، ما وصفه مترجموه، فى قولهم: عجب من العجب، شاعر ظريف، يلعب بالشطرنج والبرد، ويدخل فى كل فن من الجد والهزل، يقول:

(١) اشتهر القول فى هذه الحقائق النفسية، حتى أغنى عن التفصيل هنا. وجلة ما نشير اليه منها: أنهم يحملون الغرائز الانسانية مجموعات، أقواها وأهمها، مجموعة غرائز الذات، أو المركب الذاتى، الذى يتألف من عناصر تكون وحدة متماسكة، تصل بين العقل والجسم، وبها قوام الشخصية، فإذا ما اعتدى هذا المركب الذاتى من العقبات ما يؤثر عليه كالعيوب الطبيعية، وجدت عقدة الانحطاط، ومركب النقص ... ولهذا الحال اثر فى الشخصية يختلف باختلاف الاشخاص والامزجة والطبائع، فقد يؤدى الى مشكلات نفسية، وحالات عصبية، تعجز الشخصية، وقد يؤدى الى شعور قوى بالذاتية، وتماسك فى الشخصية، رغبة فى التعميض، وتحقيق التكافؤ النفسى ... ولعل هذا يفسر القولة الماثورة: كل ذى عاهة جبار ...

أنا أحمد الله على العمى ، كما يحمدُه غيرى على البصر (١) ... وهكذا أراد أبو العلاء بالقول والفعل معا ، أن يقهر آفته وينكرها ، ويعترف بالحياة ومطامعها ، فيمضى فى طلبها ، مغطيا النقصه ، استجابة للناموس النفسى ... فحفظ ودرس ، ولقى الأشياخ ، ورحل فى طلب العلم والدنيا ، ونضج مبكرا ، فقال فى هذا الدور شعرا ، يظهر فيه جليا أثر الناموس النفسى المذكور ، من إنكار الواقع ، والاستعلاء عليه ... فهو يفخر فخرا متوسعا ، وهو متغزل ، وهو يحب الاجتماع ... الخ تقرأ قصيدة من شعر شبابه فتراه فيها ذا إقدام ، ولا إقدام لمثله ، وذا نائل وهو مكدر لم يوسر : يغدو ولو أن الصباح صوارم ، ويسرى ولو أن الظلام جحافل ! وما إلى ذلك ... فهو يعيش فى هذا الكبت المستمر منكرا واقعه الجسمى مشاركا فى الدنيا ، راغبا آملا .. ولكن رغم هذا الكبت تنفس الحقيقة أحيانا ، فيتمنى البصر فى الصبا ، إذ يقول : —

فليت الليالى ساحتنى بناظر يراك ، ومن لى بالضحى فى الأصائل
فلو أن عيني متعتها بنظرة اليك الأمانى ، ما حلت بغائل

سقط ٢ : ٣٢

وهكذا يمضى العصر الأول ، أو الدور الأول ، أو الصراع الأول ، إن شئت ، فى عناء عنيف ، من التكل والاستعلاء وإنكار الواقع ، والطمع فى ما لم يمنح آله .. وذلك كله فى زمن ليس بالخير ولا بالمستقر ، من حيث الشؤون السياسية والاجتماعية ، فالهراع فى مثله شاق على المسلحين ، فكيف به على مثله !! لم تواته ظروف الحياة ، إذ كانت مضطربة ، وكانت قاسية ، فلم يستطع الفرار من قدره ، بل راض صعب آماله فكانت شموسا كما يقول :

ورضت صعب آمالي، فكانت خيولا في مراتعها شمسنة

٢٩٩ - ٢

أبو العلاء نفسه يقسم حياته إلى دورين في النثر والشعر ، فمكذا يقسمها
في رسائله إلى الداعي (١) ، وهكذا يقسمها في اللزوميات قوله :

رضيت ملاوة فحفظت علما وأحفظني الزمان فقل حفظي

٧٠ - ٢

وأبو العلاء نفسه ، يصف هذا الدور من حياته الأولى ، نثرا وشعرا ، ويتضح
في الوصف التقسيم والتحديد ، فهو يقول في الفصول - ٢٧٩ - مازلت أمل
الخير وأرقبه ، حتى نضوت كملا ثلاثين ، كأني ذبحت بكل عام حملا أرق
- فيه سواد وبياض - بياضه الأيام ، وسواده لياليه ، وهيئات كأني قتلت
بالسنة حية عرما .. أن الزمن كثير الشرور ؛ فلما تقضت الثلاثون ، وأنا
كواضع مرجه على نار الجباحب ، علمت أن الخير مني غير قريب ، ..

كما يقول - ف ٢٣١ - « وأن الله خلقتي لأمر ؛ حاولت سواه فألفيت

المبهم بغير انفراج .. ويقول : « هجرت فما أغنى التهجير ، وأدلت فما أغنى

الإدلاج » - ف ٢٨٥ -

كما يتحدث في شعره غير قليل ، عن أمل كالقنا ، وحال في قصر السهم

أقمت برغمي ، وما طائري براض ، إذا ألفت الوكون

ولي أمل ، كأتم القنا وحال كأقصر سهم يكون

٢٨٩٠٢

كما يقول :

أرجى أموراً، لم يقدر بلوغها وأخشى خطوباً، والمهمين كافياً

٣٤٥٠٢

طلب مكارماً فأصاب كلاماً، فهو قد أراد غير الشعر، وأكثر من الشعر:

طلبت مكارماً فأجدت لفظاً كأننا خالدان على الزمان

٣٢١٠٢

هكذا انتهى الدور الأول الذي حدده أبو العلاء، ووصف حاله

المكتوبة فيه، ذلك الوصف الصريح الدقيق الذي سمعته

أدرك أبو العلاء أن هذا القدر أخو الحياة، فقال: هل أطأ على غير

الأرض، أو أبرز من تحت السماء!!! أدلت فأصبح أمام المدلجين، وهجرت

وهو مع المهجرين؛ قال وعرس مع القالة المعرسين - ف ٢٥١ - لا مفر له من

هذا الواقع المادي، ولا مخلص له من همته ومطامحه، فهو يغير الميدان

ولكن المعركة هي المعركة، بل هي أحمر وطيساً، وأعنف صراعاً... فإذا هو

في الدور الثاني، يعترف بالواقع الجسمي، وينكر الدنيا، أو ينكر ما في الفطرة

من طلاب هذه الدنيا، ينكر ذاك كله استعلاء وتغطية وتعويضاً، وخضوعاً دائماً

للاموس النفسي الذي بني دفعه الحضارة الإنسانية بجهد المتغلبين على ضعفهم

هو في كلا دوريه منكر الواقع، مستعمل عليه، حامل نفسه على غير ما تحتمل:

أنكر أولاً آفته، واعترف بالدنيا، يطلبها وليس من المزاحمين فيها... ثم أنكر

ثانياً فطرته في طلاب الدنيا حين اعترف بواقع ضعفه، فليسعد بالحرمان،

حين يسعد الناس بالنوال، فهو يدعي كراهة الدنيا؛ بل قل يأخذ نفسه صادقاً

بكرهيتها، فيرتفع عن الطلب، ويحقر المني، ويرى الآخرة أفضل وأسعد؛

فهو في فنه الأدبي لهذا الدور، يتحدث عن فضل الزهد وخيره، وقبح الحياة الدنيا وفنائها، ويذم الناس وجهلهم، وجشعهم، ويفر منهم ويدعو إلى اعتزالهم... وما هو في كل ذلك إلا مكبوت، يحاول قهر فطرتة، فتغلبه حيناً ويغلبها حيناً، يغلبها فيوقع أنغاماً حزينة، راحلة، واعظة مودعة، مستروحة ريح الأخرى. وتغلبه فطرتة، فيقول الحقيقة في صدق وشجاعة، ويوقع الحانا آسفة على الحرمان ناعية الفشل، ويسجل حقائق قوية جريئة عن نسك أصحاب الهمم البعيدة حين يزعمون النسك.

ومن المفهوم في هذا الدور وقد اعترف بواقع القدر الملازم، أن يقول العمى عورة والواجب استتاره في كل أحواله... ويتخذ مغارة ينزل إليها ويأكل فيها (الرسائل ١٣٠ ط أ كسفورد) بعد ما كان يقول: أن العمى نعمة (١) وهكذا تغنون دورى حياة الرجل عباراته: العمى نعمة.. والعمى عورة.



وأبو العلاء نفسه، يصف هذا الدور الثاني أيضاً في دقة وصراحة وشجاعة، فيقول: انا لا أضبر — أثب — فهلا أضبر! كما يقول: وما اعتزلت، إلا بعد ما جددت وهزلت، فوجدتني لا أنفذ في جد ولا هزل، ولا أخصب في التسريح ولا الأزل، فعلى بالصبر، لا ببد للبهيم من انقراج — ف ٢٩٧ —

١ - من الطريف بهذه المناسبة الإشارة إلى ما يقال من أن أديسون المخترع، وهو أصم كان في وسعه أن يسترد سمعه بمجرد بجرادة، وقد حدد ميعاد لها، ولكنه أبى أخيراً أن تجرى العملية، وقال: أن صممه يجلب عنه الضوضاء، ويقيه سماع كثير من الهذر، فيستطيع أن يكتب على عمله ويحصر ذهنه فيه... وهو شبيه بما يورده بعض المتأديين بياناً لقوله المرمى في أن العمى نعمة، أي أنها تريحه من رؤية الثقل... والمسألة في حقيقتها النفسية ترجع إلى ما أشرنا إليه، وهي كذلك في أديسون وصممه

وليس الصبر بالهين عليه ولا السهل - فهو يقول : لست أخا صبر، ولا حليف

صبر - ف ٣٠٤ -

وفي شعره من وصف هذا الدور غير قليل ، فلقد سمعناه قبل يقول :
لما رأيت سجايا العصر ترخصني رددت قدرى إلى صبري فأغلا بي

١٠٠ - ١

ويتحدث عن غناه بالقناعة ، وعوده إذا طلب الناس :

إذا طلبوا فاقنع لتظفر بالغي - وإن نطقوا فاصمت لترجع باللب

٩٦ - ١

كما يقول :

خلافك بعض الناس يرجى به الغنى وفي الدهر أقوام خلافهم و حزم
فأفطر إذا صاموا ، وصم عند فطرم على خبرة ، إن الدواء هو الأزم (١)

٢٦٩ : ٢

كما يقول أيضا :

ولست من الركب إذ يعوجون في المعلم

إذا طمعوا فاقتنع وإن جهلوا فاحلم

٢٧٤ : ٢

كما يعترف في شجاعة جديرة بالاكبار، أن آفته سبب فيما فعل من رغبة في

الاعتزال والبعد عن الناس، في مثل قوله :

إذا كف صل أفعوان فما له سوى بيته . يقتات ما عمر التريا

ولو ذهبت عينا هزبر مساور لما راع ضأنا في المراتع أو سريا

٨٠ : ١

كما يجهر بحقب ذكر الآفة بقوله :

وما زال نعم الراى لى أن منزلى كاتى فيه مضمر ، كن فى نعم

٢٤٢ : ٢

وهو يسجل الصراع النفسى فى دقة شاعرة ، ولا يمتنع من الجهر بالواقع كما هو ... فلا يأنف من أن يصرح بأنه لا يفعل لنفسك ، بل لتأثره بما أصابه فيقول ، بعد ذكر المرأة :

ولم تقب لاختيار كان متعبا لكنك العود إذ يلحى وينتجب (١)
ويعقب عليه بقوله فى العزلة :

وما احتجبت عن الأقوام من نفسك وإنما أنت للذكراء محتجب
قالت لى النفس ، أنى فى أذى وقذى فقلت صبرا وتسليما ، كذا يجب

٦٦،٦٥ : ١

ويذكر هواه وتشبيهه كثيرا ، ولوعته على القوات ، ويكرر القول بأنه لم ينسك وإنما حرم ، وفى القطعة التالية ترى مثالا لذلك واضحا :

هواك مشابه فرسا جوحا وما ألبته ، فعليك رسنه
ويتحدث عما فاته بقوله بعد :

ولا يعجبك روض باكرته غمامه ، وأغصان يمسنه
ولا الأفواه تضحك عن غريض فرائد فى مدايتها غمسنه
ويذكر كبته لنفسه بقوله :

ألم ترفى حميت بنات صدرى فما زوجنهن وقد عنسنه
ولا أبرزتهن إلى أنيس إذا نور الوحوش به أنسنه

ويجهر في صراحة بأنه ليس ناسكا :

وقال الفارسون حليف زهد وأخطأت الظنون بما فرسنة
ورضت صعب آمالي ، فكانت خيولا في مراتعها شمسنة
ولم أعرض عن اللذات إلا لأن خيارها غنى خنسنه
وهكذا يصير أبو العلاء على أن يحسن فهم نفسه ، ويرد فعاله إلى أصولها
النفسية ، كما أصر على أنه عاش كسائر الناس ، ولها كما لهم ، وجد كما جدوا
فليس من الخير في شيء أن يعامل فعله بالفلسفة ، والتفلسف ، والدعوى الواسعة

تغاير آرائه ظاهرة نفسية

انتهت حياة أبي العلاء على هذه الحال التي صار إليها في دوره الثاني ،
فأمضى حياة كلها أنكار للواقع ، واستعلاء عليه ، ورغبة في تكميل ما نقصه
فيوما ينكر آفته ، ويوما ينكر بشريته .. حينما يطلب الدنيا بغير آلتها ، وأنا
يخرج نفسه من الدنيا ، وهو فيها ... ذكاؤه دافع ، وآماله واثبة ... واقعه قاس
ونقصه غير يسير ، ورغبته في التكميل جاحجة ، فهو ونفسه أبداً في جذاب
كما قال :

إني ونفسي أبداً في جذاب أ كذبها وهي تحب الكذاب

١٢٣-١

وفي هذه الحال النفسية ، واجه أبو العلاء الحياة في حس مرهف وشعور
دقيق ، وروح ساهرة ، وراح يدون خواطره ، تدويناً موسعاً ، مفصلاً ، دقيقاً ،
شاملاً للعوالم النفسية المختلفة التي تمر به ، ويمر بها ، مدركاً في دقة أخفى غوامض
هذه العوالم النفسية ، فهل يستغرب بعد ذلك ، أن يغضب هذا الرجل فيوائب

القدر ، ويهاجم الأقداس ، ويلعن الناس ، أو أن ينظر إلى حاله ، فيرى الأمر
حظاً ، واتفاقاً لا غير ، ويلعن هذا الحظ .. أو أن يروض نفسه ، فتلين حيناً
وتسخر من الحياة ومن فيها ، ومن متع الدنيا والمتقائلين عليها ، وتشعره ذلك
تشويه زاهد ، ممعن في التجرد والتخلي ... أو أن تشعر هذه النفس الدقيقة
بالحياة الواقعة ، كما أخضعت الناس ، وخضعوا لها ؛ فتحلل من ذلك ماتحلل
تحليلاً بارعاً ، وتصفه وصفاً قديراً .. أو أن تلجأ هذه النفس إذا قسا عليها
الواقع ، إلى فسيح الرحمة الإلهية ، ورحب العوالم السماوية .. ؟ لا بعد في شيء من
ذلك ، ولا غربة أبداً ؛ بل شأن النفس المكبوتة هذا الكبت ، المتطلعة
ذلك التطلع أن تنتقل مثل هذا التنقل

ولو أن رجلاً عادياً ، خالصاً من هذا الصراع الدائم في نفس أبي العلاء
قد راح يدون خواطر نفسه ، في شعور تام بها ، وتتبع متنبه لها ، واستيعاب
شامل لعواملها ، لم في الحياة بنواحي مختلفة ، تختلف بها خواطره ، ولخرج
بشبه لما قاله أبو العلاء ، يختلف فيه مرجه عن غضبه ، وهزيمته عن نجاحه ،
وفرجه عن حزنه ، فكيف بأبي العلاء وهو يتردد بين أمرين أحلاهما مر ؛ بل
هما مرير وأمر . واقع قاس ، وإنكار جرى . (١)

(١) في هذا المقام الذي نذكر فيه اختلاف العوالم النفسية للإنسان اختلافاً ينتهي إلى
خواطر في مثل تقابل معاني المعرى لو دونت كتدوين معانيه ، نشير إلى ما يقال عن شخصية
واقعية ، لرجل عصري عملي جبار ، روت المجلات الدورية من عمله ما يشبه تناقض أبي العلاء القولي
وبعض تصرفه العملي ، وهو فيما يكون : الزعيم الياباني المسيو تويوما ، أحد الرجال الذين
يوجهون الحياة اليابانية الحاضرة ، ويقولون عنه : أنه يبدو رجلاً عجوزاً هادئ الطبع ،
لطيف المعشر ، ولكنه يدبر المؤامرات لاعداء الحكومة .. حتى قيل إنه قتل في طوكيو
اثناء عام واحد (١٢٠٠) رجل . وهذا الجبار المدير للمؤامرات يعيش في حجرة

✽ فالسرفى تناقض، أو تغاير آراء أبى العلاء نفسى محض ، يرجع إلى أمرين فى نفسه: أولى ظاهرين فيه :

أولاهما - الرغبة المتوثبة فى الاستعلاء على ضعفه والقهر لواقعه .. وهو ما ساد دورى حياته على السواء
وثانيتهما - دقة هذه النفس الشاعرة فى إدراك عوالمها المختلفة، وخواجها المتغايرة .. ثم يوازى هذين العاملين انقطاع أبى العلاء لتدوين خواطره . وفراغه لذلك ، وتوافره عليه

هكذا تغايرت آراء أبى العلاء ومعانيه ، دينها ودينيها ، فنيها وعمليها ، بل هو فى غير الدين قد يكون أكثر تغايراً أو تقابلاً... وهكذا ينبغى أن نفهم آثار أبى العلاء - فيما أرى - فهما نفسياً، صحيحاً، صادقاً، دقيقاً، غميقاً، ممتعاً، مقبولاً على هذا الأساس م

بسيطة لا أثاث فيها ، بنام على الأرض ، ويرفض أن يتدفأ فى الشتاء، حتى لا يحرقى النجم الذى يجب أن يخص لمصانع القنابل والخيرة ، ولا ياكل اللحوم لأنه من أعضاء جمية الرفق بالحيوان . وإذا ما رأى طفلاً فى الشارع أسرع نحوه، وحمله ولاعبه ولاطفه . وإذا رأى قطعة تنالم دمت عيناه . ثم بعد ذلك كله يعود إلى داره ويرتب المؤامرات لقتل أعدائه فى الظلام ، ويتل منهم فعلاً مثل هذا الدود الذى ذكر فى عام واحد ؟؟

وسواء أصبحت هذه القصة أم لم تصح، فإننا لا نريد أن نقول أن أبأ العلاء من القلة النادرة فى الشخصيات كهذه الشخصية الحية الآن، بل قد وصفنا من حاله النفسية التى هى أثر واقعه الجسمى المادى ، ما يفسر هذا التقابل والتناقض باختلاف عوالمه النفسية .. وإنما أوودت الحكاية عن هذا اليبابى للمناسبة القريبه فى التقابل بين الرحمة التى تبكى لتالم حيوان والقسوة التى تحرم نفسها الدفء لتدخر للتقابل ، وتدبر للاختيال !!

وإذا ما فهمنا أبا العلاء، على هذا الوجه، فقد فهمناه من نفسه هو، لامن نفوس دارسيه وقارئيه، كما حصل ذلك في القديم والحديث، وفي الذي سمعت لهم من أحكام وآراء؛ إن ينهض بها بجانب من قوله، قعدت بها جوانب أخرى وجوانب !!

فأما في القديم، فحيث كانت العناية بالناحية الدينية واضحة في المترجمين له لم يعنوا بتناقضه إلا في المسائل الدينية، فذهبوا يفسرون حاله، حيناً بالشك وحيناً بالإلحاد، الذي تاب منه وأتاب، وحيناً بعدهم ما لم يتفق مع العقيدة مكذوباً عليه؛ كما يعنون براوية أخبار أو منامات دالة على حسن حاله وسعادة مصيره... الخ ما نعرف من الحكم عليه وعلى غيره، حكماً أخروياً في هذه الدنيا !!!

وأما حديثاً فباتباع بعض المتحدثين عنه، مثل هذه الخطة، ولو أخلوا بالمنهج العقلي في الدراسة إخلالاً واضحاً، كالذي فعل من (١) أنكر أن يكون في غير اللزوميات إلحاد.. فعمم ذلك فيما لم يره من كتب، قائلاً: «... ولا إن شاء الله في كتبه مما لم يصلنا، اللهم إلا نزر يسير...» فحكم على ما لم يصلنا من كتب المعري بحسن الرغبة، وطيب الأمل، أنها خالية مما يكفر إن شاء الله !! ومن فهمه في نفس دراسيه حديثاً ما نقرأ في دائرة المعارف الإسلامية — ١: ٣٨٢، ٨٣ من الترجمة العربية — أنه ليست هناك عقيدة إسلامية،

(١) هو صاحب «أبي العلاء» وما إليه، إذ أنه في ص ٢٩٠ بعد ما اعترف بما له من الشر في الزوم واستغفر مما يرمى إلى المروق يقول: «ولكن لا يوجد له شيء في غيره من هذا النحوء لا في س، ولا في ملق السيل، ولا إن شاء الله في سائر كتبه مما لم يصلنا اللهم إلا نزر يسير لا يصرح إلى الفرض فلا حاجة لنا إذا به...» وما أدري كيف حكم على ما يصلنا من آثار الرجل وبنى أو إثبات لما فيها! كما لا أدري كيف استثنى هذا النزر اليسير الذي لا يصرح وهو لم يره إلا بعين الأمل!

لم يسخر منها أبو العلاء ، وأنه كان يرى الدين من صنع العقل الانساني ، ونتيجة للتربية والعادة ، ولم يقبل أية صورة من صور الحياة الأخرى ، وكان ينظر إلى الغناء على أنه خلاص سعيد من الحياة . . الخ !! ✎

ولو قرى. أبو العلاء ليفهم من نفسه ، وفي نفسه ، لكان حاله في الدين كحالته في الدنيا ، خاضعا لمؤثرات تتطلب التفسير المطرد الصحيح ، سواء أكان ذلك التفسير بالناموس النفسى الذى وصفناه أم كان بغير ذلك ؛ مما يمكن أن يقوله غيرنا ، مادام تفسير قائم على أصل صحيح غير ادعائى ولا تحكمى كما كان ذلك حتى الآن وإذ ذاك سيكون القول بتفلسف أبي العلاء ، وشرح فلسفته أخف مما هو الآن حدة ، وأضيق دائرة ، وأقل تحكما في فهم حياة الرجل ، مادام الدرس قائم على أساس من التجربة الحبيرة بالدنيا والناس والآن ، وقد اطمأننا إلى هذا التفسير النفسى ، لحياة أبي العلاء الأديب وفهم أقواله على أساسه . بقى علينا أن نتقدم الى بحث آخر هو :

أبو العلاء بين قوله وفعله

إذ سمعنا مفلسي الرجل أنفسهم يقولون : أن الفلسفة بحث ، تخضع حياة الباحث لنتائجها ، وناقشناهم في ذلك كله من أمر صاحبهم - انظر ص ٩٩ وما يليها - بعد ما افتقدنا الأصل الفلسفي ، الذي يقيم عليه الفيلسوف فلسفته ، وهو مذهبه في المعرفة ، فلم نظفر للرجل في هذا بمذهب ، وبعد ما التمسنا رأيه في شئون حياة الإنسان العملية ، التي زعموا لأبي العلاء بها عناية خاصة ، فوجدناه فيها جميعها ينفي ويثبت ، ويأمر وينهى ، ويحسن ويقبح ، فلم نستطيع من أجل ذلك كله ، أن نجد لسلوك أبي العلاء العمل أصلا فلسفيا نقيمه عليه ، ونعزوه إليه . . وقررنا بذلك اننا لانستطيع أن نعزو أسلوبه في الحياة إلى فكرة فلسفية سيطرت عليه ، لأننا لانجدها ، ولا نراه يثبت على شيء منها ، فلا نعرف إلى أي قوله ونسب فعله ، أن كان له فعل ثابت متسق قد اطرده ؛ وإنه لخليق بنا ، والأمر كذلك أن نعلل أفعاله بغير التفلسف الذي يتبع فيه السلوك النظر ، ويتأثر الفعل بالرأي

ونحن قد اطمأننا فيما مضى ، إلى أن أبا العلاء الذي لاندلج فيه سمات الفيلسوف - بل نجد منه الأخلال الواضح بالمنهج الفلسفي - إنما هو رجل وجداني ، متفنن ، قوى الأحساس ، دقيقه ، صادق التعبير عنه ، جرى القول به ، قد أعطانا سجلا نفسيا لعوامله المختلفة ، اعلمنا لانظفر بمثله ، من أديب ، سجل اعترافاته بدقة وتفصيل ، معلنا قصده إلى الاعتراف ، ومصمما على

المصارحة . فإعلم أننا إلى أن حياة الرجل ، كانت - كما يقضى بذلك الواقع الجسمي - خاضعة لفعل الناموس النفسى ، المعروف ، الذى ندين الحياة والحضارة لآثاره فى أعمال من نقصتهم الدنيا بعض قواهم ، فعوضوا نقصهم ، وسدوا عجزهم ، وأن حياة صاحبنا قد تعرضت بذلك للون من الاستعلاء الكابت فى دورها الواضحين ، فكان ذلك خليقا ، بأن ينقل الرجل بين عوالم متغايرة ، وأجواء نفسية متقابلة ، يصدق تعبيره المحس الدقيق عنها ، فيترك فى قوله تلك الآثار الواضحة من التعارض ، الذى يبدو جليا بيننا ، لمن قرأ أدبه ، فوصل بين اطرافه ، وربط بين أجزائه ، ونظر إلى الوحدة المتصلة بين أوله وآخره ، وبعبئده وقريبه .. وإذا ما بطل التعليل الفلسفى لبعض فعله أو كنهه ، فقد بقى علينا ولابد ، أن ننظر إلى ما يمكن أن يكون لهذا الفهم النفسى للرجل ، من أثر فى فعله ، لفهم حياته العملية ، كما فهمنا حياته القولية ، فهما إذا أصول ثابتة ، صادقة ، تمدها الخبرة النفسية ، وتؤيدها المعرفة العلمية ، لافهم نقول ومرويات ، يعتريها ما يعتري الأخبار دائما ، من اضطراب وتأثر ، ولا فهم فروض ، ينال منها الهوى والتحكم .. وذلك هو تمام ما ندعو إليه فى فهم شخصية الأديب ، فهما يجدى على فهم أدبه .. فهما متمثلا متذوقا .. فلننظر أولا فيما عرف وصح نقله عن أسلوب حياة الرجل فأما :

زهد أبى العلاء

فقد كان فى العصر الثانى من حياته يكفى بدخله القليل لا أكثر ، وهو ضرب من الاعتدال المترفع ، ليس كالزهد الذى وصفه وأطنب فيه ، حينما كان يتجه إلى القول فى الزهد . فلا هو ترك الدنيا التارك التام ، ولا حرم

نفسه، ذلك الحرمان الشبيه برهبة الرهبان، وما إلى ذلك مما تراه فيما أسلفنا من حديثه عن الزهد... وهى حال من القناعة، لملك تراها أيسر ماتحملة عليه نفسيته التى وصفناها آنفا، وأنتك لتجد غير قليل من الشواهد، على توجيه نفسيته له، نحو هذه القناعة والاعتدال، أو الزهد إن أبيت ألا أن تسميه كذلك.. فهو عاجز عن الغنى، وبخاصة بعد تجربته طوال الدهر الأول من حياته أيام الشباب والأمل، فبقى أن يكون الصبر عنده أروح من تكلف الطلب، لأنه يستطيع حمل نفسه عليه، حين يعز عليه سبيل الطلب ووسائله، كما يقول:

الصبر أروح من حاج تكلفه تزجى له الخيل والمهرية القودا

٣١٧ : ١

فهو يكتفى بالقناعة، عن عظامم لا تبلغ الا بالجد، ويقول:

ويكفيك التقنع من قريب عظامم، ليس تبلغ بالتونى

٣١٨ : ٢

وهو مستطيع أن يخفى مطعمه، فلا يدرى أحد ماذا أكل، كقوله:

لنفسى ما أطعمت، لم يدرى آكل سوى، أحلوا جاز فى الغم أم مرا

٣١٨ : ١

وبهذا ومثله من أخذ النفس بالصبر يثرى مع فقد المال، ويقول:

إذا أثريت من صبر جميل فأنت وإن فقدت المال مثر

٣٢٢ : ١

وهكذا يثرى بالمعالي، فيقول:

كثير من تكثر بالمعالي على ما كان من قل وكثر

٣٢٢ : ١

ويكون العقل الوافر خيرا من المال في قوله :

فأن لم تنل وفرا من المال فاستعن وفارة عقل ، فهي أذكى من الوفرة

٣٠٨ : ١

وهكذا يستعلي على العجز ، ويغلي نفسه إذا ما أرخصه الناس ، ويسجل

ذلك قائلا :

لما رأيت سجايا العصر ترخصني رددت قدرى إلى صبرى فأغلابي

١٠٥ : ١

وهي قوة نفس لا عجب في أن تكون عند أبي العلاء ، وأن يكافح بها

ما فاتته من قوة وقدرة على الغلاب . . . ولكن أجل وأكثر من هذه القوة على

الصبر ، قوته على الجهر وصدق وصفه لنفسه في غير موارد ولا مداواة ،

ويتمثل لك ذلك إذا ما قدرت أن هذا البيت الأخير ولما رأيت سجايا العصر . الخ

وهو جلي تمام الجلاء في وصف الحال النفسية وناموسها الذي اشترنا إليه

وأجرينا حياته عليه . . هذا البيت أنما يقوله بعد قوله :

وحب دنياك طبع في المقيم بها فقد منيت بقرن منه غلاب

١٠٥ : ١

فيجهر صريحا بحب الدنيا وغلبة ذلك له ، كما يجهر بما اتقى به ذلك ، أذ

أرخصه العصر فأغلا به الصبر . . ويرحم الله الشيخ فما أقواه ، ثم ما أصدقه .

وقد فسر لنا قناعته خير تفسير وأصرحه ، ولذلك نفهم عنه زهده ، مع

استمرار أمله بعد ما عجز ، فهما نفسيا واقعيان ، لا تفلسف فيه ولا هو مذهب له ،

ولا حاجة بنا إلى تكلف كهذا . وفي الذي مضى من قوله المتقابل في هذا الزهد

ما يتم به هذا الفهم النفسي ، ولا نعيده هنا . .

ومن هذا الزهد تحريم الحيوان - وقوله فيه متقابل - على ما رأيت فيما مضى ، وفعله فيه مفهوم غير مستعص على هذا البيان النفسى ، دون الزيادة عليه ببرهمة أو غيرها من الدعاوى ... وأما

العزلة

فأن الرجل بعد ما أعلن عن عزمه عليها، ما أعلن في رسالته إلى أهل المعرة ، وبعد ما قال في فضلها ما قال ، كما قال في ضررها ما قال - انظر ص ٨٨ وما بعدها - ، لم يصر منها إلى حال تحوج إلى التعليل الفلسفى أو النفسى ، أذ لم يلتزمها ، كما يشهد بذلك من آثاره ، مثل قوله :

يزورنى القوم ، هذا أرضه يمن من البلاد ، وهذا أرضه الطيبس^(١)

٢١ : ٢

وقوله :

وشهرت فى الدنيا ، ومن لى أن أرى كالنير الفانى مع الأشهار

٣٦٦ : ١

وأخبار القدماء مؤيدة لهذا ، كما أن المحمدين يذكرون فشله فى طلب العزلة^(٢) ، وليس الذى يعنيننا أنهم يؤيدون الأخبار الواردة بذلك ، وإنما المسألة هى تقريرهم ، أن هذه العزلة كانت أمنية ضائعة ، لأن أبا العلاء وأن زهد فى كل لذات الحياة لا يستطيع أن يزهد فى العلم والتأليف ، اللذين قد ملكاه واستأثرا به ، وكلاهما يكلفه عشرة الناس ، لاحتياجه إلى من يقرأ له ويكتب عنه^(٣) ... هكذا يفسرون هذا المعجز عن الاعتزال ، وهو تفسير لا أرتاح إليه ،

١ - الطيبسان كورتان بخراسان

(٣٢) الدكتور طه حسين بك : ذكرى أبى العلاء : فصل فشله فى طلب العزلة ص

٢١٦ ، ١٧ ط أولى

لأن التأليف والكتابة يحوجان إلى واحد، أو أحاد قليلة ، لا ينفي الاتصال بهم ،
تحقق العزلة والبعد عن الناس !! ثم هو في كل حال ، تفسير احتمالي لا غير ..
على أنك أن تركت هذا التفسير ، فأنتك لن تترك ما أتلاه من القول في بيان أن
الرجل ، لما سبق ، لم يلبث بعد استقراره بالمعرة أن اشتغل بالتعليم فالتف
حوله الطلاب وما هو إلا الزمن القليل حتى كثر سوادهم حوله ، ثم
لم تمض على هذه الحال أعوام حتى أخذ الناس يزورونه ، ويكتبون إليه ،
فاستحالت عزلته ، إلى أشد أنواع المعاشرة ^(١) ..

لن تترك هذا القول دون تعليق ، لأن الحاجة إلى من يكتب أو إلى
من يقرأ . لا يترتب عليها أن يشتغل أبو العلاء بالتعليم ، ثم يكثر سواد
الطلاب حوله ، ثم يزوره الناس ، ويكتبون إليه ، فتستحيل عزلته إلى أشد
أنواع المعاشرة !!



أنك لتلمح في صدر هذا الكلام ، المبين لسبب فشله في طلب العزلة ،
أشارة إلى حالته الجسمية ، وحاجته بها إلى غيره ، دون مضي في ترتيب أثر
آخر ، على هذه الحاجة ؛ وكان من القريب أن يقدر أثر هذه الحاجة النفسى
فلعله يكشف وجه الرأى والتعليل ، لفعل أبي العلاء في العزلة .. وهذا التفسير
فيما يبدو لي - هو تتممة الذى مضى من بيان أثر الناموس النفسى المعروف ، على
المحرومين والمنقوصين ؛ ويرجع إلى أن الرجل بعد دوره الأول في الاستعلاء
على حالته المادية ، وبعد فشله في ذلك ، وخروجه من بغداد ، جعل يستعمل
على الدنيا والناس ، أو قل ، جعل يستعمل على غريزته الاجتماعية ؛ وهو استعلاء

شاق مرهق لا يتيسر النجاح فيه ، ولهذا أعلن رغبته ، بل تصميمه على العزلة ،
ولكن غلبه من نفسه ، ما بقي فيها من الفطرة الاجتماعية ، فلم يتنبأ له الاعتزال
فعلم وألف ، ولقى الزوار ، وتلقى الكتب . . وهذه البقية الفطرية التي لم
يتيسر له التغلب عليها ، هي التي ظل حتى آخر عمره ، يعترف بدفعها له وتأثيرها
عليه ، اعترافاً دقيقاً ، صادقاً ، شجاعاً ، صريحاً ، فيحدث عن حبه الدنيا وميله إلى
لذائذها ، وأنه لم يزهد فيها ، ولكنها أخطأته ، فتجمل بالصبر مترفعاً . . وظل
يقاسى هذا العناء النفسى الدائم فيعلن حيناً ترفعه عن عشرة الناس وانتقاصهم
والنصح بالبعد عنهم وما إلى ذلك من مختلف معانيه فى الوحدة والنفرة ؛ ولكنه
لا يعزّل ولا ينفّر . . ولا يخطئك رغم ذلك من شعره ونثره ما يعطيك هذا التفسير
النفسى الملحوظ ، من الاختلاط ثم الفرار عجزاً ، مع استمرار مرادة الآمال
كقوله :

لجأت إلى السكون من التلاحي كما لجأ الجبان إلى الفرار
ويجمع منى الشفتين صمتي وأبخل فى المخافل بأفترارى
وكان تأنسى بهم قديما عشارا حم فى شأوا غترارى
يشت من اكتساب الخير لما رأيت الخير وفر للشرار

٢٢٧ : ١

وقوله :

هربت انفرادى كيما يخف عن أعاشر ثقل احتمالى

٢١٠ : ٢

مع قوله :

وما احتجبت عن الأقوام من نسك وإنما أنت للنكراء محتجب

٦٦:١

وهو ما تقرأه في نشره ^(١) إذ يقول « نأبي تاب ، واليد ليست ذات
أكتاب ^(٢) ، فانا للناس أخو جناب » ^(٣)

ولعلك مستطيع أن تلج في فشل طلبه العزلة مظهر ما يشكوه من
مراودة آماله لمدى الدهر؛ لأن هذه العزلة انطواء على النفس يليق به ويرى
ويستطيع معه الفراغ للعلم والتأليف دون توسع في لقاء الناس؛ ولكنها
النفس الانسانية تنازعه، وهو معها في غلاب، كما قال كثيرًا فصدق الناس
القول عن نفسه ... وأما

المراة والنسل

قأن الرجل لم يحاول منهما شيئًا ، مهما يختلف قوله بشأنهما ، كما أسلفنا
بيانه ، وسوق غير القليل من متقابله ، ولستا نطمئن إلى أن الإنصراف التام
عنهما ، إنما كان من الرجل فلسفة تذهب إلى كذا وكيت ، أو تلتزم ما رأت في
ذلك من رأى ، لأن الرأى كما أمضينا القول لا يتجه وجهة بعينها ، والفلسف
لا يؤيده شاهد ، بل تنقضه الشواهد ، فلا شئ مترك أبو العلاء حياة الأسرة تركا تاما ،
وهلا كانت نفسه تنازعه ، فيحاول ولا يصل ، كما فعل في العزلة مثلا ؟ . لن يفسر
هذا التترك بالنفور من الناس ، لأنه خالط كما سبق ، كما لا أحسبه يفسر بالفقر وقلة
المورد ، لأن هذا الرزق الثابت ؛ كان يكفي أبا العلاء وخادمه ، فكان يكفيه مع زوج مكان



خادم .. وهبها الحاجة وضيق ذات اليد . فهل تقوى الحاجة على منازعة نفسه ،
فلا يحاول الاتصال بالمرأة أبد حتى في عصر نشاطه واستعلائه على ضعفه ،
وجده في سبيل النجاح ، حينما كان يطمع ويطمح ، ويقول :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفاف وإقدام وحزم ونائل ..
أما أنى منذ تركت الاستراحة إلى تفلسفه وتحريره النسل فلسفة ، وملست
إلى البيان النفسى ، جعلت لا أقف عند هذه الظاهرة من فعل الرجل في ترك
الزواج والنسل ، بل أسأل نفسى : لماذا جانب أبو العلاء المرأة ؟ ومضيت
أبحث عن سر أبى العلاء .. لم لم يتزوج ؟

وللمرأة مكانها في فن صاحبنا ، مهما يكن القول الشائع ، عن رأيه في
الزواج والنسل ، ولقد جاءك من صورته الثانية التى لم يرسمها له مؤرخو ولا
دارسو أدبه ، ما قرأت في ص ٧٨ وما بعدها ، من رأيه الحسن في المرأة ...
وهو بدقيق حسه وصريح قوله ، وجرى تعبيره ، يعطينا الكثير عن منزلة
المرأة في هذا الفن ، أو مكانتها في نفس الرجل .. ، فقد تغزل غير قليل في
شعره الذى يجمعه سقط الزند ^(١) . وفي هذا الشعر ما يمثل العهد الأول من
عهود حياته ، وهو عهد الشباب والأمل ... ومهما يكن التقدير الفنى لهذا
الغزل عند دارسه ، ومهما يكن رأى أنه تقليدى ، فإنه لا شك يدل على
شعور بالمرأة ، ومكانها في الفن وهو قدر لا مشاحة فيه .. على أنه بعد ذلك
في عهده الثانى لم تخل لزومياته الوقورة ، بل لم يخل نثره ، من حديث المرأة
مع الخمر أو وحدها ، فوق ما سمعت من ذلك في حديثنا السابق ، عن رأيه غير
الشائع في المرأة .. وصفا لها ، أو حديثا عن حل الطيبات ، أو عن الحرمان

(١) تجد من ذلك ما فى ١ : ١٨٢ و ١٨٥ و ٢٠٨ و ٢٠٩ و ج ٢ : ٤٦ و ٦٥ و ٧٨

١٠ و ١٤٢ و ١٥٨ من طبعة مصر سنة ١٣٢٤ ، إلى مواضع أخرى من شعره ونثره

من كذا وكذا منها ، كالظيف والرضاب الخ وإليك طرفا منه :
يا حبذا العيش الأنيس ولم ترم هدم السرور من الخطوب زلازل

١٥٩:٢

ولا قصرت لي أم ليلي بشر بها حنّادس أوقات على طيال

١٨٧:٢

ويعجبني شيان خفض وصحة ولكن ريب الدهر غير شياني (١)
وما جبل الريان عندى بطائل ولا أنا من خود الحسان بريان

٣٠٧:٢

خمور الريق لسن بكل حال على طلابهن محرمات
ولكن الأوانس باعشات ركابك في مهالك مقدمات

١٥١:١

بيض دوار للقلوب ، كأنها عين بكوار وعين دوار (٢)
هذى أوارى المنازل ما درت أنى أوارى فى حشاي أوارى
أما فوارى العين عندك فصادفت سمعا ، وأما الوجد منك فوارى

٣٣٣:١

ولو اطمانت إلى أثر الشعور النفسى فى قوله ، لوجدت فى غزله وصفه مثل

الذى تجد فى ذمه لمن ، وفقده أباهن ، من الدلالة على الشعور بهن ، بل على
الاتجاه إليهن ، ولذلك مثل غير قليلة ، حتى فى حديثه عن التسبيح والتجيد
حين يطلب أو يغرى بالأجر عليه ، فيذكر أنه يوصل لرضاب الحور ،
ويقول فى الفصول (٣) : ومن مزج رضابه بذكر الله ، لم يئأس من رضاب

(١) الشيان هو المعروف بدم الاثوين يريد به الحرة وغضارة الحسن

(٢) دوار خواتل ، ودوار رمل مستدير . ودوار بيت لهم فى الجاهلية يطاف به

الخور... على أنك ستقرأ في نثره، من أسفه وتشبيهه، ما هو جلي واضح، كقوله (١) «الشبية، أضعت الحبيبة، فكيف ورأسك خليس بك - سوداء مختلطة ببياض».. وقوله (٢) مخاطبا الله تعالى «أن تصوير ابن آدم لعجب بديع، ما أقدرك على تغيير ما نحن فيه، إن أردت التبديل، لا أكتملك ما أنت به عليم، إن أسنى على الدنيا لطويل، نقد عمرى وغيرى المصيب رأسى أسحم، ولدأت شيب، وإذا يقدر اللذة، وعمارة الدنيا بها، فى مثل قوله (٣) «... وقول الحق أفضل من السكوت، واستقامة العالم لا تكون ولذة الدنيا منقطعة، وخبر الميت غير جلى...».. ولو ألمعت بيكاته الشباب، والتبرم بالمشيب وما يتصل بذلك، لاوفيت على كثير من الاتجاه إلى المرأة.. ولهذا كله درسه المستقل المفرد، وحسبنا هنا تقرير أن أبا العلاء متجه إلى المرأة شاعر بالفطرة البشرية، متنبه إلى الحاجة الانسانية، فلماذا أمسك عن الزواج إذن؟ إن الرجل لم يترك هذا السؤال بغير جواب، فقد تحدث عنه غير قليل من الحديث، وقد أشرنا أيضا إلى بعضه، فيما مضى من حديث، عن المرأة واختلاف رأيه فيها، وبقي من ذلك، ما لو أحطنا به وتأملناه. فلعله موف بنا على تعليل ترقح اليه النفس، أكثر من قول القائلين بالتفلسف، وتحريم النسل، وما إلى ذلك، من فروض تركوا فيها واقع الرجل، وأهملوا دراسة عنه، ثم راحوا يتحدثون عن كل أولئك من أمره، بعين عنه، غير متصلين به !!

تحدث أبو العلاء عن زواجه فى مثل قوله :

أنا للضرورة فى الحياة مقارن ما زلت أسبح فى البحار الموج
وضرورة فى شيمتين : لأننى مذ كنت، لم أحجج، ولم أتزوج

وقوله :

أسير عن الدنيا، وما أنا ذا كر لها بسلام ، إن أحداثها خمس^(١)
ضرورة ما حالين: ما لكعابها ولا الركن، تقبيل لدى ولا لمس
ولم أرث النصف الفتاة، ولم ترث
لى الربع ، بل ربع تطاول أو خمس^(٢)

١١ : ٢

فهو مع حديثه فى هذه الآيات الأخيرة ، عن التقبيل واللمس ، والحرمان
والشدة ، يجمع بين الحج والزواج ، فى أنه ضرورة عنهما ، كما قال فى البيتين
السابقين .. (ضرورة) و (مقارن للضرورة) ، فلائى ملاحظة جمع بين الحج
والزواج وحرمانه منهما هذا الجمع ؟؟ انه يجمع بينهما أيضا ، فى حديثه
عن غيره ، كما جمع بينهما فى حديثه عن نفسه ؛ فمن قوله فى غيره :
قد يحج الفتى ، ويغنى بعرس وهو من صرة اللجين ضرورة

٣٠٣ : ١

فلا أمر ما هذا الجمع بين الحج والزواج ؟ أهو يقدر فيهما الاستطاعة
والمقدرة المالية ، بملك صرة اللجين ، وهو لا يملك شيئا ؟ .. ربما كان هذا
هو سبب الجمع بينهما ، ويرجحه قوله بوضوح فى الحج :
لا ملك لى ، وأرى الدنيا تحاصرنى وما حججت ، وقد لاقيت إحصارا

٢٩٧ : ١

وهذا الإحصار الذى يذكره ، اصطلاح فقهى ، يريدون به ، المنع من
الحج بعذر قاهر من مرض أو عدو يحول بين الشخص وإداء الشعائر ، وهم
يعقدون له فصلا خاصا ، فى كلامهم عن الحج .. فهل ذكر هذا الإحصار ، يفسر

(١) أى شديدة

(٢) الربع والخمس من أظاء الأبل

المعنى الذى جمع من أجله صاحبنا ، بين الحج والزواج ؟؟ .. إن أبا العلاء قد يكون محصرا عن الحج بضعفه وعجزه ، إذ هو مستطيع بغيره — كما يقول — لا بنفسه ؛ وهو لا يجد نفقه السفر له ولخادم يعينه ، ثم هو فى كبرته قد انضم إلى أسباب إحصاره أيضا ، الضعف الذى لعله لا يستطيع معه السفر .. فهل منعه من الزواج ، أنه غير مستطيع المهر والنفقة ؟ .. إنه يتحدث عن الحج والعجز مرة أخرى فى قوله :

ولم أقض حجا فى منى وبلادها وكم عاجز قد زارها متنفلا

١٦٨٢

فقد تكون فى هذا القول إشارة ما ، إلى عجزه عن الحج .. وجملة هذا تلفت النظر — فى غير بعد — إلى أن الشيخ قد عجز عن الحج والزواج أو أحصر عنهما كما يقول ، مادام يجمع بينهما هذا الجمع أكثر من مرة ، وهى نتيجة لا بعد فيها ، ومقدماتها تعطياها من قرب ، فبقى أن نعرف سبب إحصاره عن الحج والزواج ؟ أهو المال وعدم وجدانه ؟ أم هو شيء آخر ؟ وهل سبب الإحصار واحد فهما ؟ ... لقد كان العجز المالى سببا واضحا فى الحج ، لأنه رحلة ونقلة ، تتطلب نوعا من القدرة ، وتلزم بزيادة من المال لا يمكن معه قضاء الأمور — كما فى الإقامة — بما يتيسر .. ولكن العجز المالى فى الزواج ، ربما لا يظهر سببا للإحصار ، لما قدمنا من أن أبا العلاء كان يعيش مع تابع ولا بد ، فلو كان هذا التابع فتاة ، أو امرأة ، كيفما كانت لم يزد عليه بذلك شيء من المال .. بل لعل أبا العلاء كان يجد فيها معونة على المعيشة بدخله اليسير ، لا يجدها بدونها ، مع الخادم الرجل ... ولم يكن بعجزه أن يجد كريمة فقيرة ، تشاركه هذه الحياة الخفيفة الحاجات ، المحدودة المقدرة ... ومن ذلك وما إليه ، نستطيع الاطمئنان إلى أن العجز المالى ليس سببا قويا للإحصار عن الزواج ، ومن

الدقة أن نمضى فى التماس سبب آخر ... وقد وجدنا فى الحج سببين للعجز : هما المال، ثم ضعفه الى حد ما... وقد بعد - الى حد ما كذلك - ان المال من أسباب العجز عن الزواج ، فبقى ان هناك سببا آخر ، فهل هو ضعف عن الزواج، وهل فى المسألة اعتبار جسمى جنسى له دخله فى هذا التصرف؟ ... لا بعد فى أن يكون ذلك، وواجب البحث يقضى علينا بالمضى فى اختبار هذا الفرض .. وفن أبى العلاء هو دائما مادة هذا الاختبار وأدانه ، لأنه فن دقيق، صريح ، صادق ، عميق وعند هذا الاختبار ، نجد فى أدب صاحبنا، ذكر سر أو أسرار فى حياته ، قد تكون أسرار الكون والمعرفة أحيانا ، كما يحتمل من قرب ، أن تكون أسراراً من غير هذا الصنف ... ومن حديثه فى الأسرار ، التى لا يبدو أنها أسرار الكون وخفايا الحقائق مثل قوله :
ولدى سر ليس يمكن ذكره يخفى على البصراء وهو نهار

٢٧٥ : ١

فما هذا السر يا ترى ؟ .. أنه يذكره فى سياق الحديث عن بنى آدم وولادة أمهم إياهم عاركا ، فى غير طهر ؛ كما سيتحدث بعد بيتين اثنين من ذكر هذا السر، عن الغريزة المسيئة وزجرها ، مريداً بها تلك الغريزة الجنسية، لقوله :
فازجر غريزتك المسيئة جاهداً واستكف أن تتخير الأصهار
فهل يرجح هذا الجو العام للحديث، أن الحديث عن سر يتصل بهيمة الغريزة ؟ . وإن كان يقول عقب السر مباشرة :
أما الهدى فوجدته ما بيننا سرا ، ولكن الضلال جهار
فان هذا السر من الهدى غير ما فى سياق الحديث العام ، ومع هذا فترجيح أن السر الأول هو سر الغريزة لا بعد فيه ..
وتسمع من حديثه فى الأسرار قوله :

طوى عنك سر أصحاب قبل شيبه فلما انجلي عنه الشباب جلاه

٣٣٦ : ٢

فهو قبل هذا بيت واحد ، يتحدث عن حمار الوحش ، يفتك به القدر
فيطلق عرسه كارها ، ثم يأمر في البيت الذي قبل حديث السر ، بعدم الاستسلام
لهم النفس ، كما يأمر في الشطر الثاني بالادلج اذا ما نام الركب ، وبعد هذا يذكر
حديث السر المطوى قبل الشيب ، والمجلو بعد انجلاء الشباب ، وقريب من
السياق ، ومن ألفاظ البيت ، أنه سر يتصل بالغريزة المذكورة ، ومن الممكن
حقا أن يكون سر الزواج . . فتضم الى هذا قوله ، حين يتحدث عن حياته ، وأنه
فيها سامرى ، يقول : لا مساس ، كما قال السامرى في بنى إسرائيل ، وذكره
السر في هذا المقام ، بقوله :

ولم يطل سامرى حديثي بل عشت في الدهر سامريا
لو علم العاذلون سرى لأصبح القوم عاذريا

٣٦٢ : ٢

فهو سر الوحدة ، وسر السامرية التي تقول لا مساس ، وهو سر يعذر
من يعرفه في هذه الوحدة والسامرية ، فلا يرجح هذا أنه سر ترك الزواج ،
أو سر الغريزة كما قلنا . . ؟ ؟ . أحسب أنه ترجيح مقبول . على أنك لو جمعت
الى هذا مثله ، من قول الشيخ ، لوجدته يزداد جهرة ، فهو في صراحته التي
عهدناها ، وشجاعته التي كثرت شواهدا ، وفي دفته التي أودع بها خواطره
آثاره الفنية ، يقول ما هو أكشف وأبين كقوله :

ولم يلق في دهره أجربى هوانى فلينا عنى هوانى^(١)

(١) أى هوانيه الذين يهنتون جربه ، أى يطلونه بالقار ونحوه

وعندى سر بنى الحديث كنت عنه فى العالمين الغوانى

٣٢٨ : ٢

فما السر البنى الحديث ، الذى تكنى عنه الغوانى فى العالمين ؟ أليس هو
السر الذى ليس يمكن ذكره كما قال ، وهو السر الذى يخفى على البصراء
لا يعرفونه ، وهو نهار فى آثاره ونتائجه ، كما وصفه ايضا ؟؟ هو هو غالبا
والسر البنى ، الذى لا يمكنه ذكره ، والذى تكنى عنه الغوانى فى العالمين ،
والذى هو خفى على البصراء ، هو سر الغريزة فيما ترجح مطمئنا .. هو سر
الإحصار عن الزواج ، هو السر الذى يزيد كشاف قوله فى البيت التالى لما سبق :
إذا رملة لم تجىء بالنبات فقد جهلت أن سقتها السوانى^(١)

فلم يكن إلا جهلا أن يتزوج ، وهو كالرملة التى لا تجىء بالنبات ...
ولعلك تجد شواهد فى فن الرجل الصريح ، على هذا السر ، وإن لم يذكر فيها
لفظ السر كأن تسمعه يقول ناظما :

وهمت ان تحظى ، ولكن طالما خذلتك عن نيل المراد خواذل

١٥٩ : ٢

ويقول ناظرا^(٢) : « أحب الدنيا وآلتها ليست فى ، وقد ينست من بلوغها
والياس مريح ، فالام التشوف الى الضلال ؟؟ .. فهل صدق أحد الناس حديث
نفسه ، فى حب الدنيا والتشوف إلى ضلالها ، كما صدق أبو العلاء الصريح ؟
أحسبه بهذا الصدق نفسه ، قد صدقهم الحديث عن حظه من الغريزة حتى ما كانوا
فى حاجة بعدها الى أن يرجعوا بالغيب ، ويذهبوا مع الفروض ، ويتركوا مع

(١) النوق يستقى عليها .

(٢) الفصول ص ٢٥٨

ذلك كله ، حديث الرجل عن واقعه ، وتقديره الصحيح لصلة الجسم بالنفس ،

« وأن إستقامة العالم لا تكون ولذة الدنيا منقطعة » كما يقول هو

أما إني من هذا الطريق النفسى الواقعى ، أطمئن إلى أن صاحبنا قد منعه من الزواج مانع مادى ، وأنه أحصر عن الزواج إحصار المحرم بالحج عن أداء الشعائر . . ولكنى لا ألقى غيرى بهذا ، إلا على أنه فرض فى فهم هذه القطع من الشعر ، وهاتيك الاشارات البعيدة والقريبة من النشر . . فرض أضعه بين يدى الدراسين ، ولهم رأيهم فى قبوله أو رفضه . . رغم اطمئنانى أنا إليه ، كما اطمأنت إلى رد صنيع أبى العلاء كله فى الحياة الى أسباب واقعية ، قضت بها حاله الجسمية ، و نفس مقيدة بهذا الجسم . وهى فيه أسيرة ، وبه لا بغيره تهوّل

على أنى حين أترك للدراسين رفض هذا الفرض أو قبوله ، يدفعنى حظى من الاطمئنان له ، إلى أن أدعو الدراسين من النفسيين ، الى تكملة إيضاح هذه الحال النفسية ، وتبين سائر آثارها . بعد ما بدا فيها من أثر الآفة الظاهرة ، ثم آفة الغريزة الخفية على البصرء ، فان هذه الأحوال من شخصية الرجل لتفتح آفاقاً فسيحة من البحث النفسى ، وتلقى على فته أضواء لا بد منها لفهمه . . بعد ما رأينا منه المثل القوى الواضح لضرورة فهم الادب ذلك الفهم النفسى وأخيراً فى سبيل تحديد القول . وضبط الفكرة ، أجمل خطوات هذا الرأى ، فأبين فى إيجاز أنى :

قلت أنفـا

١ — إن أبا العلاء قد استمر الحديث عنه يتجدد ، وهو كقوله : خليق بأن يكرر ليفهم ، فحاولت فهمه ، على أن يكون عملي فى ذلك مثلاً من الفهم النفسى ،

للأديب وأدبه : وتبعت في ذلك ما اشتهر على الأعصر، من نعته بالفلسفة،
فالتست رأيه في أصول التفاسف ومسألة المعرفة، ثم في آراء الفيلسوف
الثابتة، التي أقام عليها مذهبه، فكانت النتيجة :

٢ — أن أبا العلاء، لم يترك في مسألة المعرفة، ومنهج التفكير، شيئاً
لم يقله، كما لم يقف في ذلك عند رأى بعينه، بل ذكر من ذلك كل مشقابل
ومتخالف... فتركت مسألة المعرفة إلى آرائه، ألتمس ما ثبت منها، واختبرت
ما يسمى بالفلسفة الإنسانية، لبعدها عن الغموض والاضطراب، ولأنها
ناحية تأثير الفلسفة على سلوك الفيلسوف، ولأن مفلسفيه، يذكرون اهتمامه
بشئون الحياة الإنسانية... فتبين من النظر في ذلك :

٣ — أن أبا العلاء تتقابل آراؤه في كل شيء، من الدين والدنيا ومن
شئون السلوك الانساني كله، حتى ليتمكنك وضع ثبت من ذلك، بمقابلات
معانيه، يسير فيه التيار الموجب، تيار سالب... ومن هذا استطعت
أن أقول :

٤ — إن أبا العلاء من حيث المعرفة، أو المذهب الفلسفي، لم يعين شيئاً
تستند اليه فلسفة... ثم تبين إلى جانب ذلك أنه لم يترك التفلسف فقط،
بل كانت له اتجاهات تخل بالمنهج الفلسفي إخلالاً واضحاً... فقد حدد مقدرة
العقل، وقرر وجود الأسرار التي لا ترام... ونفى ثبات التواميس واطراد
السنن الكونية، وترك الكون المشيئة المطلقة؛ وليس كذلك يقول - حتى
الدينيون المحدثون... كما بينت في نفي الفلسفة عنه، والاخلال بمنهجها، نواحي
أخرى متعددة

وإلى هنا تعين ألا تفهم آثار أبي العلاء بمنطق الفلسفة المنظم للتفكير
العقلي؛ وبقي أنه متفنن، أديب، لعله تبع منطق العاطفة، وهدى الوجدان،

فوجب أن نفهمه فهما نفسياً ، تدل فيه حالة النفس على ما اتجه اليه إحساس
الرجل ، وما وجدته من وقع الحياة على روحه ، لاعلى عقله . وفي معاناته
المنطقية التفكيرية ، ومن أصول هذا الفهم النفسى :

٥ - أن أبا العلاء من حيث هو إنسان ، خاضع للنواميس النفسية العامة
ترك حاله الجسمية فيه أثرها ، أو آثارها النفسية ، والرجل ذو آفة شديدة
الوقع ؛ فلا بد أنها تركت فيه ، أثراً فى تناوله ، وتغننه ، وتصرفه والناموس العام
لللناقصين والمحرومين هو : فعل مركب النقص أو عقدة العجز فى نفوسهم ،
وأبو العلاء منهم ، فلا أن يكون لهذا الناموس مظهره فى حياته ...
وبالاستعانة بأقوال أبى العلاء نفسه ، وخواطره الخصبه الوافية ، التى دونها ، تبين :
٥ - أن أبا العلاء قد كانت حياته استعلاء منصلاً ، وتمويضا متلاحقا ،
لذ مر بدورين واضحين ، نى فهمه هو لنفسه ؛ ووصفه لشئون حياته فى آثاره
التي بلغت حد الاعترافات . الصريحة المفصلة الدقيقة الصادقة .. وبملاحظة
هذا الناموس يمكن تفسير وقائع حياة أبى العلاء ، ويتجلى مراده مما يقول
نشراً وشعراً .. ومن كل اولئك يصدق حكماً عليه بصحة فهمنا له فعرضت لفهم
أبى العلاء من قوله المتقابل ، وفعله المسير بالـ مؤثرات النفسية .. فتبين
من ذلك :

٦ - أن أبا العلاء تقنع وصبر ، على رغبة فى الحياة ملحة .. فليس هو فيلسوفاً
متقشفاً ولا زاهداً قد غلب نفسه بل هو محروم مترفع

٧ - أن أبا العلاء لم يستطع ان يعتزل الناس ، لبقية حبه الحياة ، وعنايته بالحالة
النفسية التى قاساها طول حياته ؛ بفعل الناموس النفسى

٨ - بقى النظر فى موقفه أمام المرأة والنسل . وقد حق علينا فهمه كذلك

فهما نفسيا، بعدما تعين أن هذا هو طريق الفهم السليم، فتبين من النظر في فنه ذاته
٩ - أن أبا العلاء - فيما أرجح - قد منعه من الزواج والنسل، مانع جنسى
غير الفلسفة والزهد، ولهذا المانع أثره الخطير في نفسية الرجل. كما كان
لآفته المادية أثرها، ودارسو النفس الانسانية خلقاء بأن يزيدونا فهما لآثر هذا
المانع في نفس الرجل... وبعد ما تبين انه ليس فيلسوفا. ولا خاضعا للمنطق
العقلى.. وبعد الذى راينا من معونته الصادقة القوية لنا على فهم نفسه من
آثاره الصريحة الجريئة الصادقة. أدركنا فى جلاء :

١٠ - ان أبا العلاء رجل وجدان. دقيق الحس، عميق الادراك. صادق
التعبير جدا، جرىء التعرض للمعانى والخواطر. كاد يكون - أو قد كان فعلا -
فى الأدب العربى، هو الرجل الذى وجد نفسه وتحدث عن نفسه، أدق حديث
وارهفه حسا. وأعمقه تأملا.. لم يدع نفسه قيثارة لاطراب الآخرين. ولا
قصبة تصفر فيها رياح أهوائهم، وا كاذب مجدهم،

وإنى بعد هذا الاتصال الطويل والتفهم المتأنى لأبى العلاء أقول :

سلام على أبى العلاء بين ذوى النفوس الصادقين

سلام على أبى العلاء بين النظماء من المتفنيين

سلام على أبى العلاء بين الأدباء الخالدين

وإذ انتهيت إلى مثل هذا من رأى فى أبى العلاء، فقد حق على أن أقول
لأصحاب الأدب وتاريخه :

١ - هذا أبو العلاء فى الضوء النفسى؛ فأعيدوا النظر فى كل ما قررتم،
عن تفلسفه، وتدينه وزهده، وحياته... الخ وأصدروا فى ذلك كله أحكاما أصح
وأدق، وأصدق... ثم أقول لهم :

ب إن أبا العلاء بقوة نفسه ، قد قدم لنا فنا صادقا ، أعطانا الفهم النفسى له ، مثلاً واضحاً ، لما تجديده الدراسة النفسية للأدب وتاريخه ، من دقة وصحة فى تذوق الأدب ، وتقيم الحياة الفنية ، بل الحياة الخاصة ، لأصحابه ، وتاريخ ذلك كله ، تاريخاً محققاً ، لا تقليد فيه ، ولا تضطرب أحكامه باضطراب أهواء الناقلين أو خطأ مناهجهم ، حين كان يعوزهم التحليل ، وتخدعهم الظواهر . . . وهذا المثل تبين لنا أنه ينبغى أن ندرس أدباءنا جميعاً دراسة نفسية ، وإن شق ذلك علينا ، وخفيت معالم طريقنا إليه ، لأننا بدون هذا الفهم النفسى ، والتصحيح الضرورى ، لمنهج درس الأدب ، لن نتذوق هذا الأدب ، ولن يصح لنا حكم ناقد ، ولن نكتب مع ذلك ، التاريخ الصحيح للأدب . . . فاعملوا - يا قوم - جادين ، على رفع القواعد من المدرسة النفسية ، فى درس الأدب وتاريخه .. وإنكم إن شاء الله لعاملون

أمى الخولى

فهرس الكتاب

صفحة

الاهراء

مقدمة

من أجل المنهج - المنهج الأدبي خارجي وداخلي - اكمال المنهج - حلقات

متصلة - ثم البيئة أيضا - وبعد

١٦

مسألة المعرفة عند أبي العلاء

٢٨

هل لأبي العلاء آراء ثابتة ؟

٢٨

زهد أبي العلاء

٣٦

X تحريم الحيوان

٤١

كراهته الحياة

٤٥

X الاسرة والمرأة

٤٩

X النسل

٥٢

الوحدة

٥٣

نظرة في هذه الآراء

٥٤

زهد أبي العلاء

٦٥

تحريم الحيوان وثماره



٧٣	كراهته الحياة
٧٨	المرأة
٨٤	النساء
٨٨	العزلة
٩٠	تقابل آراء أبي العلاء
٩٥	تفلسف أبي العلاء
١٠٤	إخلال أبي العلاء بمنهج الفلاسفة
١١٨	أي المستحيلات ؟
١٢١	مسألة المعرفة والقدرة الإلهية
١٢٢	شخصية أبي العلاء الواعظ
١٣٨	تناقض أبي العلاء عند المحدثين
١٤٢	حال أبي العلاء بين قوله وفعله
١٥٤	تغاير آرائه ظاهرة نفسية
١٥٩	أبو العلاء بين قوله وفعله
١٦٠	زهدي أبي العلاء
١٦٣	العزلة
١٦٦	المرأة والنسل
١٧٥	قلت أنفا

تصويب

صوابه	خطأ	س	ص
فا	كا	١٧	٣٧
انظر ص	فيقول	١١	٤٣
لتقية	لتقيته	١٧	٩٢
هو	هي	٣	٩٦
قواه	نفسه	٦	٩٦
...	فلم	١١	١٠٥
تسمع	تسمع	١٠	١٠٧
ربنا	بنا	١٠	١١٤
يثوب	يثو	٢	١١٦
الجرة	الحجرة	٤	١١٦
على	عن	١٦	١١٦
بعبارة	بعبارة	٩	١١٨
وعد	وقد	٢٠	١١٩
لايحتمل	لايحتل	٢١	١١٩
فهي	من	٢١	١١٩
في	فقى	٣	١٢٠
لاهووية	لاهووية	٨	١٢٠
وليس ما لايتحتمله	ولا ممايتحتمله	١١	١٢٠
شواهد	شواعه	١٠	١٣٧
والابتداء	والاستعانة	١٨	١٣٧
وتبين	وفهم	١٩	١٣٧
إلا في المظاهر	في المظاهر	١٥	١٣٨
نعنى	فعنى	١٢	١٤٢
يافهامك	يافهاك	١٣	١٤٤
وأمر	وأسر	١٥	١٥٥
مالم يصلنا	ما يصلنا	٢١	١٥٧
لم يسخر	يسخر	١	١٥٨
ووصفه	وصفه	١١	١٦٨

